أوراق من يوميات حوذي

رحمن خضير عباس

الكتاب : أوراق من يوميات حوذي (مجموعة قصصية)
المؤلف : رحمن خضير عباس
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٤
رقم الإيداع : ٢٠٧٩٢/ ٢٠١٣
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 173- 4

الناشر
شمس للنشر والإعلام
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(+٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(+٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع



أوراق من يوميات حوذي

مجموعة قصصية

رحمن خضير عباس

إهـــداء

إلى روح أمي

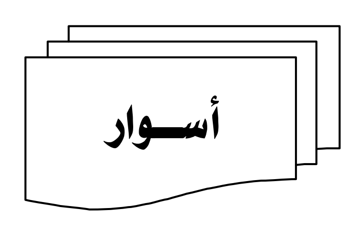
- علمتُ بموتها بعد عقدٍ من السنين -

امرأة بحجم الوطن

حينما غادرتُها مرغمًا

ظلَّ اسمي يرفرف على شفتيها اليابستين

حتى انطفأتْ روحها الطاهرة.



لَسِعَتِ الصمتَ بوخزة سؤال، كان سؤالاً مبهمًا، فاترًا، مرتبكًا، فتحركتْ تلك البركة الساكنة في أعماقي. أحسستُ كأن حجرًا ثقيلاً اخترق الرغوة المفتعلة التي شيَّدتُها حول نفسي. ورغم أن السؤال كان يرفرف في مساحة الفراغ التي تفصل بيننا، غير أنني لم أنبس بكلمة أو أُحرِّك ساكنًا، فالساكن عندي يتمرغ في وحل الارتباك. ثمة حالة من التردد تتولد فيَّ كلما حُوصِرتُ بموقفٍ مماثل. حتى أنني أشعر براحة بالغة في الهرب من تلك اللحظات النادرة التي أسعى اليها أحيانًا، ولكنني - في أغلب الأحيان - لا أمتلك الشجاعة لحسمها في صالحي، لذا أكتفي بالانسحاب المتّشِح بالإيماءات المُبهمة.

غير أن هذا السؤال الذي حاصرني في تلك الزنقة الرابطة ما بين منزلي في حي "تلبرج" وبين سوق المدينة الرئيسي؛ جعلني في زاوية ضيِّقة، بينما تتطاول الحيطان دونما نوافذ، لتجعل من ذلك الممر مجالاً طيِّعًا لمرور السابلة، والعربات، والمواشي.. وفي غمرة ترددي خمَّنتُ مدلولاته، فقلتُ مبتسمًا:

- نعم.. أنا عراقي.
ثم أضفتُ:
- مدرس جديد في ثانوية محمد الخامس.

اتسعت حدقتا عينيها السوداوين وهي تستمع للهجتي المتلعثمة، والتي بدت لها غريبة وناشزة، فاكتفتْ بالقول: تشرفنا.

فالتقطتُ أنفاسي وأنا أحاول الوصول لأقرب منعطف، وكأنني أريد التملص من هذه الورطة الطارئة التي لم أستعد لها كما ينبغي. وحينما التفتُّ وجدتها تتهادى في سيرها، وجلابيتها الزرقاء عاجزة عن تمويه أسرار جسدها الذي بدا كأنه يتمرد على أثوابه، بينما كان شعرها الأسود الطويل يتلبد، ويستلقي على منعطفات وجهها القمحي.

كنتُ أتساءل وأنا مستلقٍ على سدّارية البونج في حجرتي شبه المظلمة: لماذا يكون المساء بهذا القدر من الكآبة؟

كان الخريف يتسرب بهدوء في جسد المدينة. يُشعرك بذلك الشحوب الذي يعتري أوراق الشجر. وما إن يهبط الغروب حتى تتغلغل برودة شفافة، فتنسحب الخطوات المتسكعة التي تذرع الطرقات، وأظلُّ أسيرًا في غرفتي، محاطًا بالضجر، متأرجحًا ما بين شعاع الضوء الواهي الذي يرتمي شاحبًا، وبين العتمة الداكنة التي تنزوي في أعماقي. أقتات بالكُتب والجرائد، كأنني أكتشف؛

وبشكل مفاجئ، أنني وحيد، مقذوف في هذه الزاوية المنسية من العالم، في أقصى تخوم الشمال الإفريقي، حيث القُرى البربرية الساكنة تحت سفوح جبال "تزنتاس" المتطاولة الارتفاع، حيث يعلو أديم الأرض حتى يعانق السحاب، ثم يهبط هذا الأديم حتى يستلقي على سهول سوس وحقولها المزدانة بالأركّان والزيتون والمندرين. وفي هذه اللجة غير النهائية، أجد نفسي باحثًا عن شيءٍ مبهمٍ لا أُدرك كنهه، هاربًا من حالة مضنية بحقيبة صغيرة، تضمُّ بعض الكتب والملابس القديمة.

ضحكتْ كاتبة الطابعة في وزارة التعليم بالرباط، ضحكة أليفة فيها شيءٌ من السخرية. وحينما تلثمتُ بدهشتي وخجلي، قالت وهي تقدِّم لي كتاب التعيين:

- هي بعيدة جدًا.. "تارودانت".

وأردفتْ:

- لكنك سترتاح إليها.

غير أنني همهمتُ وكأنني أهذي إلى نفسي: (كلُّ الأبعاد متساوية إذا لم تكن هناك نقطة ارتكاز).

- أين هي تارودانت؟

هذا هو السؤال الذي ألحَّ عليَّ وأنا أتحسس كتاب التعيين بفرح. اشتريتُ خارطة المغرب وظللتُ أبحث عنها في تلافيف الخارطة، أتلمس النقاط السود التي ترمز للمدن. وأخيرًا عثرتُ عليها؛ نقطة

باهتة تبعد إصبعين عن المحيط الأطلسي، محاطة بخضرة داكنة سرعان ما تذوب في صفرة حمراء لا نهائية.

وقبل أن التقط حقيبتي من الفندق؛ ذهبتُ إلى محطة الحافلات فأخذتُ فكرة عن السفر.. وهكذا وجدتُ نفسي محشورًا في حافلة عجوز، مشحونة بالرُكَّاب والبضائع، فغرقتُ في غيمةٍ من الدخان ولغط الأحاديث التي لم أفقه منها شيئًا، ثم شخير التعب الذي انبعث وئيدًا متصاعدًا، والحافلة تئن وهي مرهقة في سيرها. تقترب من السواحل حتى نشمَّ رائحة البحر المُشَّبَع بنكهةِ العشب، ثم تنأى عن البحر متسلقة مرتفعات هائلة. ودونما وعي استسلمتُ لنومٍ عميق، لم ينتشلني منه إلاَّ رشاش من أشعةِ الشمس التي تموجتْ من خلال نوافذ الحافلة، والتي أيقظتْ بدورها أغلب الركاب الذين أصبحوا يتمتمون بعبارات أقرب الى الدعاء. وسرعان ما ارتفع قرص الشمس، ليكسو الحقول الوادعة بإشراقة شفافة، ومن بعيد تراءت أسوار غير واضحة المعالم، سرعان ما تجسَّدتْ لنا ونحن نقترب منها، ونمرُّ عبر بوابتها الرئيسية التي كانت على هيئة مقوسة. كانت الأسوار هائلة متعالية، تلتف حول المدينة كأفعى خرافية، حمراء كالحناء، وكأن "تارودانت" قد استأنستْ بالاختفاء بين طياتها عبر حِقب تأريخية متتابعة.

ها أنا ذا في تارودانت. رأيتها وكأنها تفتح أزِّقتها أمام خطواتي المتعثرة، ألمسها بحنان وكأنني أستنشق غبار الفتح العربي، وأعانق الماضي.

قادتني قدماي إلى مقهى في ساحة المدينة، بينما أصوات المزامير والطبول تدوي. خيام منصوبة، باعة، راقصون وزغاريد تنبعث من كل مكان...

- إنه الموسم السنوي...

قالها لي نادل المقهى وهو يقدِّم لي شايًّا أخضر مُعَطَّرًا بالنعناع. ثم ظلَّ يشرح لي - بعد أن قرأ بوجهي أمارات التعجب والدهشة - عن هذا المهرجان الذي يُقام في المدينة في مثل هذا اليوم، مرة كل عام. يأتي فرسان القبائل من كل حدبٍ وصوب. يطلقون نار بنادقهم في الهواء، وهم على صهوات جيادهم، وكأنهم يرسمون خطوطًا متشابكةً لأزمنةٍ تداخلتْ في لحظة واحدة. يعتمرون العمائمَ المختلفة الألوان، ويصرخون بأصواتٍ لاهثةٍ حارة. بينما حشود الناس تنظر إلى المشهد بدون مبالاة، وكأنهم قد تعودوا على مثل هذه الفعَّاليات.

أجّرتُ منزلاً صغيرًا في حيٍّ مكتظٍ بالسكان. يُطلُّ على خربةٍ مهملة. تجاوره منازل كثيرة لا تختلف عنه، حيث تتراكم النوافذ ذات الطراز المغربي الذي يعتمد على النقوش والألوان. كنتُ أشعر بأنني لا أنسجم مع جيراني الذين يضايقونني بفضولهم، بيد أنني أيقنتُ بأنهم سيتعودون عليَّ، ومن ثمَّ قد يتناسون وجودي بينهم.

وكرد فعلٍ لذلك، غلَّفتُ نفسي في شرنقة وقارٍ مفتعَل، وقيَّدتُ من خطواتي، واعتنيتُ بهندامي، وكأنني في حالة تحفز للدفاع عن النفس.

"العراقي".. هذا هو اسمي. وأحيانًا، "السي العراقي". الجميع يعرفونني بهذا الاسم، ورغم صيغة الإبهام والتنكير التي طمستْ معالم اسمي الشخصي، إلاَّ أن الاسم الجديد أثار فيَّ مزيجًا من الاعتزاز والسرور الخفي، وكأنني أحتضن هذا العراق من خلال تقمص اسمه، بل كأنه يتدفق في عروقي، وأنا أرتمي في حقول "سوس" النائية.

أنا العراقي المُحاط بعوالم شبه خرافية..

أنا المولع بتلك الأسوار التي تحيط بهذه المدينة المنسية، أسوار تنهض من قعر الزمن، وعلى أديمها تبدو سنابك خيل الغزاة، موشومة على الجدران. وأنا آخر الغُزاة المهزومين، لكنني لم أقتحم تلك الأسوار، بل جعلتها ملاذًا.

في الصباح تتضرج "تارودانت" بشعاع الشمس الذي ينسكب عليها بدفء، فتدبُّ فيها الحياة وتتعالى الأصوات، وتتزاحم الأقدام مع صرير العجلات. الرجال يختبئون تحت جلابياتهم الصوفية الثقيلة، والنسوة اللواتي يتلفعن بإزر ملونة لا يبدو منهن سوى محاجر العيون. إنه يوم الجمعة الذي يتقاسمه السوق صباحًا، والجامع زوالاً.

حملتُ قفة الخوص، وتوجهتُ إلى سوق الجمعة. حشرتُ نفسي وسط الزحام والخضرة الطازجة وغبار الطريق، حيث أسمعُ لغطًا عاليًا عن مساومات البيع والشراء، ممزوجة بأغاني الشيخات وجيل جيلالة، ثم أصوات الميكريفونات التي تروِّج للبضاعة أو تُعلن عن بيع أدوية تجترح المعجزات، تُشفي العليل، وتداوي الأبرص والمجذوب، كما تقضي على الفئران وسُرَّاق الزيت... وفجأة، أمسكتني يدٌّ في وسط هذه اللجة البشرية، إنه الفقيه التيجاني مُعلِّم التربية الإسلامية في مدرستنا...

- مرحبًا بك السي العراقي في تارودانت...

قالها بصوتٍ عالٍ... ثم مال إلى أذنيَّ وكأنه يبوح بسرٍّ غريبٍ لا يعرفه سواه:

- غُرة سوس، ونجمة الجنوب. عمَّرها السعديون لتصبح عاصمة لهم، لكنها انحدرت إلى الحضيض، وأصبحت كقول القائل: أردناها أن تكون مدينة العلم ولبة الألباب، فأبتْ إلاَّ أن تكون مدينة الذباب والـ..."

ثم بصق وهو يعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم.

غرقتُ في الزحام من جديد، تطاردني كلمات التيجاني ورؤاه عن هذه المدينة.. وإذا بذات الوجه القمحي تبرز أمامي كملاك. وقفتُ مرتبكًا مذهولاً، محاطًا بتلك الدهشة العذبة التي تتسرب في داخلي كلما اصطدمتُ بشيءٍ غير متوقع. أحسستُ بأنَّ قدميَّ تريدان

التحرك باتجاهٍ ما، غير أنَّ افترار ثغرها أطاح بكل محاولة للتراجع أو الهرب. وهكذا وجدتُ نفسي أتجول في أنحاء الوجه القمحي. سنابل ترتعش وهي حُبلى بالحبوب، وحقول وديعة تمتد بامتداد الأفق.

- أتشربين القهوة...معي.. في منزلي ؟

لا أدري كيف انفلتتْ هذه الجملة من فمي، وأية شجاعة انهمرت عليَّ في تلك اللحظة. كانت الكلمات بيننا معلقة في الهواء، مبللة مرتبكة، وأنا أنتظر ردود فعلها، فقد ينطفئ بريق الفرح بعينيها، قد يكتسي وجهها بقناعٍ من الغضب الجامح. قد تصرخ غاضبة، فيحتمع الآخرون ضدي يقودهم التيجاني، وهم يصرخون : اخرج أيها العراقي فقد لوَّثت عِفَّةَ مدينتنا.

غير أنها على عكس وهم توقعاتي، أعلنتْ موافقتها على دعوتي بإيماءة من رأسها، بينما شعرها الأبنوسي يتراقص على أرنبة أنفها:
- وقتاش؟

قالتها بغنج وكأنها تتوقع دعوتي هذه. فتسللتُ محاطًا بنظراتٍ مستهجنة. وسمعتُ أحدهم يصيح بصوتٍ عالٍ :
- (بناتنا بحال خبز السوق.. ما ياكله غير البراني).

وأنا البراني الذي أُبعد قسرًا عن عوالمه الأليفة، ليبحث عن سقفٍ يؤيه، أو غطاءٍ يتدثر به.

حالما وصلتُ منزلي.. رتَّبتُ الأشياء المهملة، من صحفٍ مرمية، أعقاب السجائر، الأطباق المتسخة. نظَّفتُ كل شيء، بينما كان الوقت يمرُّ ثقيلاً. وقبل أن تبدأ عقارب القلق، سمعتُ طرقًا عجولاً على الباب. فتحته بسرعة فإذا امرأة ملفوفة بزرقة إزار، لا تبدو منها سوى عينين سوداوين. وحينما أماطتْ اللثام؛ بدأ الوجه القمحي يتوهج. أغلقتُ الباب تداهمني مشاعر شتى. جهَّزتُ أكواب القهوة، وأطلقتُ لنفسي العنان للحديث عن مواضيعَ شتى لا رابط بينها وكأنني أهذي. وحينما امتدتْ يدي لتداعب عنقها؛ وجدتُ صمتًا دافئًا، جعلني أسبح في بحر شعرها الأبنوسي. غير أن وجه التيجاني برز ليصرخ بي: " غرة سوس، ونجمة الجنوب...."

ذهبتُ إلى البار الوحيد في المدينة. جلستُ في زاويةٍ بين أضواء باهتة تتسرب من أشجار الجوز المحيطة بي، أستمعُ إلى قهقهاتٍ ثملة محتميًا بدخان سيجارتي. وحينما أحسستُ أن البيرة تشعُّ في أنحاء جسدي، فيتسرب منها خدرٌ لذيذ؛ خرجتُ من البار، وارتميتُ في دروبٍ ضيّقة، مُشَّبَعة بظلمةٍ داكنة، تاركًا قدميَّ تقودانني، لأجدَ نفسي في شبكة من الزنق المتداخلة؛ وكأنَّ عنكبوتًا ضخمًا قد نسج هذه التشكيلة من الدروب والبيوت والخرائب، وجعل أقدامي معلقة بسائله اللزج.

داهمني خوفٌ خفيٌ، وفكَّرتُ بفاطمة؛ بجسدها الطري وأحلامها الساخنة، غير أنَّ أشعة الكاشفات الضوئية لفندق "السلام" الكبير

أشعرتني بالأمان. فخرجتُ من هذه الظلمة، بينما الأسوار تستحم بالضوء، وتخفي عتمةً باردةً وأسرار الزنق العنكبوتية.

لم تتركني فاطمة وحيدًا، فهي تزورني كل جمعة. يتضوَّع جسدها برائحة الغاسول والصابون البلدي، فأرحلُ وإياها في زوارق من النشوة.. تحكي لي أشياءً شتى، وكأنها تفترض جهلي بكل شيء.. تحدِّثني عن أبيها الذي يعشق الشيخات ويترك أمها تموت مهمَلة في مستشفى الأمراض الصدرية.. عن عمِّها الذي يُصلِّي ليل نهار، ويصوم رمضان، لكنه يتعاطى الكيف، ويأتي بالنساء ليضاجعهن في غرفته على السطح.

- وكيف عرفتِ ؟... أسألها بسذاجة.

فتجيبني ضاحكة :

- كنتُ أسترق النظر من ثقب المفتاح.

في كثيرٍ من الأحيان، أشعر أنها تنسج قصصًا، ربما للتأثير على المناطق الرخوة من شخصيتي. تُحدِّثني عن عُشَّاقها الذين تلتقي بهم على شواطئ أغادير، حيث البحر والشمس، فتخيلتُ جسدها وقد تفصَّدتْ عليه قطراتُ الماء المالحة، فيكتسي بسُمرة برونزية تتلَّون برشاش أمواج البحر. فتفجرتْ في داخلي غيرة متوحشة، لكنني مثَّلتُ دور العاشق غير المبالي.

تملكتني حالة من الضجر وأنا أعيش في "تارودانت". فلم تعد الأشياء تملك بهجتها، وحتى وهج الدهشة الأولى فقد بريقه. والأسوار التي عشقتُها يومًا لم تعد تُغريني..

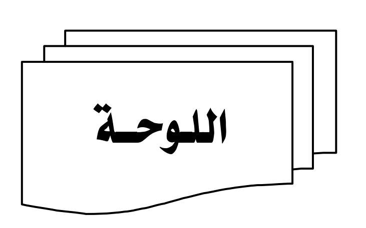
وفي صباحٍ مُبلَّلٍ بالمطرِ والكآبة، خرجتُ إلى الساحة العامة، غير أنني وجدتُها قد طفحتْ بهذه السيول المطرية التي لم تنقطع منذ الأمس. في البداية كانت بشائر الفرح بين الأهالي؛ لأن المطر يحمل الخير لهذه الأرض العطشى، لكن استمراره لليوم الثاني دون توقف جعل الفرح يتحول إلى خشية؛ ثم إلى خوف. وما إن بدأتْ بعض البيوت بالانهيار، حتى ظنَّ الناس أنه الطوفان.. نهاية العالم.. ارتفعت المآذن بالدعاء، أكثروا من التضرع إلى الله ليتوقف المطر. كنتُ أتجول في الأزقة وكأنني أعوم في اليمّ. إنه الطوفان. كان البعض يفرُّ ببعض حوائجه؛ وكأنه يريد الهرب بأعزِّ ما يملك.. كم شعرتُ بالأسى لهذه المدينة التي احتضنتْ خطواتي الأولى، كنتُ أراها تحتضر، فاتجهتُ صوب الباب الغربي، حيث الأسوار. لكن مفاجأتي كانت مُحبِطة. لقد بدأتْ الأسوار بالتآكل، فذاب ترابها مختلطًا بالمطر. أما صخورها فقد بدأتْ بالتدحرج عائمة في الماء كحصى صغيرة. تلك الأسوار التي قاومتْ الزمن وصمدتْ أمام الغُزاة قرونًا، تنهار وتستحيل إلى طمي وأحجار صغيرة... توقف المطر أخيرًا، بعد أن ترك المدينة مُهشَّمة، عاريةً من أسوارها.

لم أستطع أن أقدِّر حجم المأساة التي انعكستْ على أهالي تارودانت الذين خرجوا عن بكرة أبيهم، وكأنهم يشَّيِّعون أسوارهم. كان الرجال يرتدون ملابس الحِدَاد؛ وكذالك النسوة اللواتي يبكين بمرارة. وكان الأسى العارم يحلِّق في وجوه الناس الذين حملوا ما تبقى من أحجار أسوارهم؛ وكأنهم يحملون أطفالاً غرقى... كنتُ أرقبُ المشهدَ مذهولاً، ولم أعلم أنَّ ثمة همسًا بين الجمع المحتشد: اخرج من مدينتنا.. اخرج.. اخرج..

أيقنتُ بأنهم يحمِّلونني مسؤولية ضياع أسوارهم، فتراجعتُ مذعورًا، وإذا بالجموع تتقدم خلفي. يريدون أن يرجموني بما تبقى من أحجار أسوارهم. تضرعتُ إليهم وأنا أرى الرغبة العارمة في رجمي انتقامًا. تعثرتْ خطواتي الهاربة المتراجعة، مذهولاً من رؤية الفقيه التيجاني الذي كان يوقف الحشود الغاضبة. كنتُ ألمح الحقد المشوب بالعتاب، حتى فاطمة كانت غاضبة؛ لكنها لم ترفع حجرًا لرجمي، وكأن عينيها تستحلفاني بأن أرحل.

وفجأة دبَّ صمتٌ عميقٌ لم يمزِّقه سوى صوت التيجاني:

- اذهب أيها البراني، بعيدًا عن أسوار مدينتنا.. لقد جلبتَ لنا الدمار، ولكننا أبقيناكَ حيًّا طليقًا.



كان يلعق قهوته السوداء في صمت.. بينما المقهى توشك على إغلاق أبوابها، وحيدًا يحدِّق في الفراغ.. يهرش شعره الأسود الذي استطال حتى دثَّر أذنيه.. ضباب كثيف ونثار من الثلج، تتراقص حباته كفراشات مجنونة يعبث بها الريح فتصطدم بالزجاج البارد. أزاح بعض الضباب المترسب على صفحة النافذة فرأى فراشات الثلج تلسع وجوه المارة المسرعين.. وشيئًا فشيئًا إذ يتراكم الثلج على الأرصفة.

ـ أول عاصفة خريفية تجتاح أوتاوة..

قالتها نادلة المقهى وهي تمسح الطاولات لصباحٍ آخر.. شعر أنها تستعجل خروجه.. المقاهي في (باي وورد ماركت) تغلق أبوابها مبكرة ـ بعكس أيام الصيف ـ حيث يصبح هذا المكان قلب المدينة الحيوي الذي يزدان بالمقاهي والبارات والمطاعم.. تمتلأ الأرصفة بأكشاك باعة الفواكه والخضروات وباعة الورود؛ هؤلاء الذين يعرضون بضائعهم بشكل أنيق وتصميمات جذابة تغري السابلة بالشراء وتغري السُّواح بالتقاط الصور التذكارية.. كما تصطف

أكشاك أخرى لهواة بيع الخواتم والحلي الرخيصة، والملابس التقليدية والنحت الإفريقي على الأخشاب، وتلوين الزجاج، ورسامي البورتريهات وبائعي الصور الفنية والبضائع المكسيكية.. ولا ننسى الفِرَق الموسيقية اللاتينية التي تعزف الموسيقى اللاتينية من السلفادور وكولومبيا.. حركات الباسكر الرشيقة تصنع حلقات من الفُرجة الضاحكة حيث يقدمون عروضًا سخية ومجانية سوى ما تجود به أيدي السواح ومدمني التسكع والتسوق... كل ذلك تبخَّر في هذا الخريف وبدت أروقة (باي وورد ماركت) خاوية إلا من خطواته المتعثرة.. خرج من المقهى وهو يتشمم رائحة الأشياء التي اختفت تحت ركام الثلج الخريفي الذي ولج المدينة مبكرًا.. موجة من الضجر تنتابه وهو يطوف في الشوارع المهجورة.. وحينما استغرقه الثلج بكثافة، تذكَّر أحلامه عن هجرة ستنقله إلى الفردوس الأرضي الذي سيحقِّق كلَّ رغباته المستحيلة، عن نساء شقراوات يجعلن أجسادهن ملاذًا لفحولته الشرقية، سيبحر في زرقة عيونهن إلى الأبد حاملًا شِراع الرغبة المحمومة الأزلية والمتأصلة فيه.. سيسفح حرمانه ودموعه التي اختزنها أيام الحصار، حيث بغداد الشقية تتضور جوعًا؛ تلك التي تركها بين مخالب اليأس؛ ليرحل إلى الأردن وكأنه يُمنِّي النفس بأنها ستودِّع الشقاء والكآبة إلى الأبد... أهي تلك الهجرة التي تمناها وحلم بها وانتظرها لحظة غجرية بعد أخرى؟!..

كانت عمان محطة للتشردِ وللشجنِ ولسترجاعِ الذاتِ التي تتشظتْ في الوطن.. عمان أضحت مخيَّمًا للعراقيين من كل الأجناس والأعمار والأفكار والأمزجة.. كانوا يطرِّزون ليلها الهادئ بأغاني الحنين، وبقصائد الشعر، وبالرسومات الزيتية التي تكدستْ على أرصفةِ المدينة تبحث عمن يشتريها.. وحينما أتته الموافقة على الهجرة إلى كندا، أحس بأنه يرقص حبورًا.. احتفل تلك الليلة مع بعضٍ من رفاق الفاقة المزمنة.. بعضهم حسده وبعضهم هنَّأه، وتصور أنه سيودِّع الحزن والألم والوحدة إلى الأبد..
تذكر كل ذلك وهو يرتشف ما بقيَ من كأسِ قهوته الباردة.

تلقفته شوارع أوتاوة المكسوة بالوحدة والثلج.. اتجه نحو الشارع الرئيسي، وكأن خطواته الوحيدة الشاحبة المتعبة هي فقط مَنْ تؤكد وجوده.. ها هو يسير على ثلجٍ هش يلتصق بكونكريت غير مرئي.. تناقُض بين القسوة والرقة.. أين يضع روحه المتعبة بين هذين القطبين؟.. هل ثمة فرصة للالتقاط الذات من هذه الفوضى الداكنة التي تجتاح الروح بوحشية؟.. أين هي النوافذ التي يطل منها إلى هذا الواقع العسير والممتنع؟.. ليس ثمة ألفة بشرية تستغرق لهاثه الراقص.. لتبقى المدينة مقفلة أمام وجهه..

دلفَ إلى محل بيع المشروبات الروحية، قال لنفسه: "وجدتُها" وهو يتأبط زجاجة النبيذ.. ربما ستكون مفتاحًا ينتشله من رتابةِ هذه الروح الغجرية التي تغزوه أحيانًا.

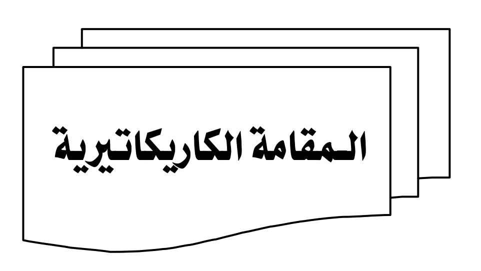
حينما دلف إلى شقته القصية عن المدينة، لم يجد غير الفراغ وفوضى الكراسي، والملابس المهملة، والكُتب التي تكدَّستْ على بعضها... خلع معطفه وهو يكتم لهاث الطريق.. فتح الراديو ليضع قرصًا لأغنية منسية رافقته سنينًا (يا طيور الطايرة.. ردي الهلي.. سلميلي ياطيور...). صبَّ كأسًا من النبيذ الأحمر وهو يرمق اللوحة الفارغة التي انتظرته أيامًا وهي مُسَمَرَّة على الحائط؛ كَنِفاس أبيض لا روح فيه.. كلما اقترب منها ليبدأ الرسم تخونه ذاكرته وإرادته وحتى مزاجه، فيهرب منها.. أمَّا في هذه الليلة الخريفية الباردة فقد صمَّمَ أن يقفز في فضاء اللوحة متعثرًا بين خطوطها الباهتة.. أنزلها من الحائط ووضعها على الحامل الخشبي.. انهمك في تحضير أدواته، فكَّر قليلاً وهو يهمهم : إنها فرصة للهروب من لحظته المعجونة بالإحباط والخوف والمَذلة.. ثمة أمل أن تستيقظ روحه من أوهام الظل والضوء، وأن تتمرد على الأفكار المعلبة في فترينات العرض والطلب.. كم حاول أن يعثر على ضالته في أكثر جاليريهات الفن في "مونتريال" و"أوتاوة"، وكان في قرارة نفسه غاضبًا متبرمًا محتجًا على الحفاوة التي تتلقاها بعض اللوحات الفنية، إذ أنها لا تستحق مثل هذا التبجيل... لقد أدمن زيارة "ناشيونال كالاري" حيث الأعمال الفنية التي تحلِّق في سماء الكالاري البهية وهو يطل على نهر أوتاوة، ويتقاطع في الجانب الآخر من النهر مع القصور الأثرية التي تمتد إلى بقايا عصر

تهبُّ في جنوبنا العراقي صيفًا، حيث شاخت الأرض وشحذ الأهوار ومات الشجر.. هل ينتمي هذا الجسد إلى هذه الزاوية التي تقترب من سقف العالم القطبي ؟... ارتمى على الأريكة وهو يرنو إلى خصلات شعرها المدلهمة كليل بغداد.. ثم وجد نفسه غارقًا في نومٍ عميق.

حينما استيقظ في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي.. كان مثقلًا بالكسل والكآبة، واللوحة ماثلة أمامه بكل بهائها.. هرش شعره الكث بقرف وهو يقترب من اللوحة، حاول أن يتلمس ملامحها بيديه.. لم يكترث حينما تلوثتْ أنامله بالزيت الذي لم يجف بعد.. تجاهل الضرر الذي سبَّبته لمساته لهذه اللوحة التي أحبَّها.. تراجع قليلاً إلى الوراء وكأنه يريد أن يرتكب إثمًا.. ثم اندفع إليها كعاشق مجنون، وقام بتمزيقها قطعة قطعة.. حتى انهارت تحت وابل ضرباته... وحالما هدأ قليلًا؛ مسح دمعة هاربة استقرت على وجنتيه.. وبهدوء جمع ما تبقى فيها وألقاها في حاوية القمامة... ثم لَبَسَ ملابسه وعاد إلى ذات المقهى ليلعق قهوته السوداء في صمت.

تهب في جنوبنا العراقي صيفًا، حيث شاخت الأرض وشحت الأهوار وملت الشجر.. هل ينتمي هذا الجسد إلى هذه الزاوية التي تقترب من سقف العالم القطبي ؟ ارتمى على الأريكة وهو يرنو إلى خصلات شعرها المدلهمة كليل بغداد.. ثم وجد نفسه غارقًا في نومٍ عميق.

حينما استيقظ في ساعةٍ متأخرةٍ من صباح اليوم التالي.. كان مثقلًا بالكسل والكآبة، واللوحة ماثلة أمامه بكل بهائها.. هرش شعره الكث بقرفٍ وهو يقترب من اللوحة، حاول أن يتلمس ملامحها بيديه.. لم يكترث حينما تلوثت أنامله بالزيت الذي لم يجف بعد.. تجاهل الضرر الذي سببته لمساتُه لهذه اللوحة التي أحبها.. تراجع قليلًا إلى الوراء وكأنه يريد أن يرتكب إثمًا.. ثم اندفع إليها كعاشقٍ مجنون، وقام بتمزيقها قطعةً قطعة.. حتى انهارت تحت وابل ضرباته... وحالما هدأ قليلًا؛ مسح دمعةً هاربةً استقرت على وجنتيه.. وبهدوء جمع ما تبقى فيها وألقاها في حاوية القمامة... ثم لَبِسَ ملابسه وعاد إلى ذات المقهى ليلعق قهوته السوداء في صمت.



حدَّثنا عيسى بن هشام.. قال:

(في ليلةٍ قائظةٍ، لم يطاوعني فيها النوم.. حاولتُ إغماض عينيَّ مراتٍ عديدة، بيدَ أنني عجزتُ عن ذلك.. اصطدمتُ بجدارٍ من العناد والإصرار على يقظة غبية مُضيِّعة للراحة والوقت.. وفكَّرتُ إنَّها ليست المرة الأولى التي أصبح فيها ضحية للأرق... وكمحاولة مني للاستسلام الكامل، فتحت عينيَّ، وتركتهما تتحركان بحُرية في أرجاء الغرفة.. تذرعان الحائط من أعلاه إلى أسفله، مرورًا بالصور المعلقة.. هذه صورة طفلتي الصغيرة وهي تبتسم بعذوبة، وتلك صورة أمي؛ ماتت قبل عدة سنوات، قيل لي : كانت آخر رغباتها قبل أن تموت أن تراني.. كبَّرتُ صورتها وعلَّقتها على الحائط المقابل لسريري، وكأنها ملاكٌ بعينين ذابلتين... تجولتْ عيناي في الظلمة الشفيفة للحائط المقابل للنافذة، حيث الستارة السميكة تحجب جزءًا كبيرًا من أضواء الشارع المجاور.. ثم راحت أنظاري تتسكع في السقف حيث يتدلى مصباحٌ يتيمٌ، فكَّرتُ بإشعاله

من جديد لأدفن نفسي بين صفحات كتاب مللتُ قراءته.. ولكنني قبل أَنْ أَهِمّ بفتح المصباح، تجمدتْ عيناي من الخوف حتى زاغتا من محجريهما.. وسبب فزعي ودهشتي المفاجئة، هو بروز أشكال غريبة، كأنها أخيلة ناتجة عن عينٍ عليلة.. كانت الأشكال تستعرض نفسها، كأنها معجونة في مسامات الحائط.. آذان كبيرة ترفرف كالطيور، بأحجام كبيرة وأخرى صغيرة.. أنوف مختلفة الأشكال والأحجام، بعضها عريضٌ مفلطح، وبعضها طويلٌ شامخ، يتكئ بعضها على شوارب كثة طويلة، بينما يستسلم البعض الآخر بين تجاعيد الوجه.. أفواهٌ بكل المقاسات، تتدلى الشفاه وتتمطط أو تبرز الأسنان، أفواهٌ تضحك وأخرى تمتعض، أمَّا الأسنان فبعضها طويلٌ ناصعُ البياض، وأخرى مثلومةٌ ومتآكلة.

ورغم أنني أحسستُ برعبٍ شديدٍ للوهلةِ الأولى، إلا أنني أقنعتُ نفسي بأنَّ هذه الأشكال مجرد أخيلة تتشَّكل في عتمةِ الليل، من خلال غشاوة عابرة تطرأ على العيون التي أتعبتها القراءة... وكمحاولة لتبديد هذه المخاوف، وتأكيدًا على حذق تفسيري، لبستُ نظارتي من جديد؛ بعد أن خلعتها قبيل نومي، وكنتُ متأكدًا من أنَّ هذه الأشكال ستنطفئ، أو تذوب في العتمة.. لكنَّ مفاجأتي كانت غير متوَقعة، فما إن استقرتْ النظارة على أنفي، وأحاطتْ بعينيِّ المتعبتين، حتى بدأتْ تلك الأجزاء؛ أعني الأنوف والآذان والعيون والأفواه؛ تلمُّ نفسها، وتتجَّمع وكأنها كيانات هلامية، لتكوِّن بالتالي

وجوهًا شبه بشرية متكاملة ومتدفقة.. لكنها وجوه مضحكة وذات مقاسات غير طبيعية، وكأنها انعكاس للمرايا المقعرة والمحدبة، والتي تعكس أشكالًا كاريكاتيرية... ولا أكتمكم سرًّا أنني نمتُ ما تبقى من سويعات قليلة لتلك الليلة نومًا عميقًا، وأنا سعيدٌ بتلك النزهة الغامضة في غابة من الوجوه.

وفي اليوم التالي... كنتُ متلهفًا إلى قدوم الليل، بل إنني افتعلتُ قيلولةً نهاريةً كي أسهر مع مخلوقاتي... وما إنْ هبط الليل؛ حتى ذهبتُ إلى غرفتي، أطفأتُ المصباح المعلق، ثم دخَّنتُ سجارتي الأولى وكأنني طفلٌ ذاهبٌ إلى دار السينما، ويستعجل ظهور الفيلم.. ومن خلال الدخان تسربتْ مخلوقاتي، وظلَّتْ تدبُّ على الجدران.. الوجوه تبدو في لحظاتها الأولى صامتةً، باهتةً، لا لون لها، وكأنها صورٌ مستخرَجةٌ من كاميرا شمسية.. غير أنَّها سرعان ما تتخذ أشكالًا مختلفة ومتنوعة، وكأنها نماذج خرافية من ابتكار المرحوم "والت ديزني"...

ومع مرور الوقت، أصبحتُ أُجيد اللعب، فخرجتُ من دوري كمتفرج إلى مخرجٍ يعرف كيف ينحت هذه المخلوقات ويحرِّكها، بحيث تأتي طازجة كما تخرج الخبزة من التنور، فتتقافز متوهجة، وتلتصق بالحائط.. ثم سرعان ما تبدأ بحركات متسارعة، وكأنها ترقص في الهواء.. أحيانًا أحاول أنْ أتحكم بها ولا أدعها تنمو بتلقائية.. وكانت النتيجة مُرْضية، أثارتْ في نفسي سرورًا عاليًا،

وحماسة منقطعة النظير، حتى أنني أقفز من فراشي لأعبِّر عن فرحي.

استمرأتُ اللعبة حتى أجدتُ قواعدها.. وطوال ليالٍ عديدةٍ متتالية، كنتُ مستمرًا فيها، حتى سمَّيتُ تلك الفترة - بيني وبين نفسي - : (ليالي الأرق اللذيذ) ! لما فيها من متعة وإثارة... كما أنني أخضعتُ وجوه الأصدقاء والمعارف إلى الاختبار ذاته.. وكانت النتيجة مقنعة.. حيث تجاوزتُ الأشكال التقليدية للتخيُّل، وأصبح بوسعي أَنْ أجسِّد الأشكال البشرية برؤية سريالية قد تغيظ حتى "سلفادور دالي"... ثم حين تجاوزتُ الوجوه المألوفة، انتقلتُ إلى المشاهير في العالم وكأنني في مهرجان كبير لتوزيع جوائز الأوسكار.. وقد خالفت المراسيم المألوفة بتقديمي نجوم الغناء والموسيقى على رجال السياسة، مما أغاظ رجال السياسة، فخرجوا من حفل تسليم الجوائز بوجوهٍ غاضبة، تدعو إلى الرثاء والسخرية أكثر مما تدعو إلى التبجيل.

ليالٍ وأنا في لُجَّةِ الوجوه والأخيلة... أتساءلُ أحيانًا عن سرِّ هذا الإدمان.. وهل أصابتني لوثة في العقل ؟.. وهل أنا سويٌّ معافى كبقية خلق الله ؟.. ولِمَ هذا الإصرار على الاحتفاظ بسرِّ تلك المخلوقات الليلية، التي لَمْ أَبُحْ بسرِّها لأقرب الناس إليَّ ؟.. هل أنا استثناءٌ في هذا العالم ؟... كانت هذه التساؤلات تلحُّ عليَّ نهارًا.. ولكن ما إنْ يهبط الليل، حتى أنسى كل شيء، وأنغمر من جديد في

سيل الأخيلة... وينبغي القول إنني لم أترك كلَّ شيءٍ سائبًا، بل أدخلتُ عليه قواعد وتعديلات، فجعلت للوجوهِ أجسامًا بعضها صغيرٌ جدًا، وبعضها عملاق.. بعضها ضامرٌ؛ بحيث إنك تستطيع أن تعُّد أضلاعه، وأخرى سمينة ذات كروش ضخمة... وقد أدركتُ أنني غير منصف وغير موضوعي في رؤيتي الكاريكاتيرية هذه، وذلك حينما صممَّتُ شكلًا للرئيس الفرنسي "جاك شيراك" جعلتُ أنفه أعلى من "برج إيفيل" في باريس، وشموخ الأنف ذو دلالة على الكبرياء والغرور، مع أنَّ شيراك أقلَّ تواضعًا من أي شرطي في عالمنا العربي من محيطه إلى خليجه... وحينما صمَّمتُ شكلًا للرئيس الروسي "يلسن"؛ جعلتُ منه خنزيرًا يقعي على اليتيه، مراقبًا ولي نعمته الرئيس الأمريكي "كلينتون"... وإني أستسمحكم العذر من ذكر تصوراتي الأخرى عن بقية زعماء العالم؛ لأنَّ هذا سيجعلني أندرج في قائمة الإرهاب الدولي الذي يجب مكافحته !.

أتحامل على النوم لكي لا يدركني، وأظلُّ في عملي هذا إلى ساعات الصباح الأولى، حتى أذوب في نُعاسٍ ثملٍ حالم، فتنقطع عني آنذاك خيوط المتعة، بعد أن تكتسي مخلوقاتي ضبابيةٌ غائمةٌ غير واضحة المعالم.. ولقد اعترتني رغبة حقيقية في نقل هذه الأخيلة إلى الواقع، فهناك أهمية لتسجيلها، ثم توثيقها بعد تبويب الموضوعات ليتسنى لي سهولة حفظها.. ومن أجل هذا الهدف؛ قمتُ باستعدادات واسعة، فاشتريتُ لوازم الرسم، من أقلام وأصباغ

وورق وطاولة، اشتريتُ كل ذلك دون أن أنتظر موسم التنزيلات.. أخذت كل شيء إلى غرفتي.. وانتظرت - كعادتي - هبوط الليل.

- لحظات وتستيقظ مخلوقاتي الجميلة..

هذا ما همستُ به لنفسي.

هيَّأتُ الأقلام والأوراق، وأنا أحدِّق في الحائط.. لم يظهر أي شيء.. سمَّرتُ عيني في الجدار كي أرى ظلًّا أو إشارةً أو حركةً.. لكن كل شيء بقيَّ صامتًا.. نزعتُ نظارتي ولبستُها من جديد، فركتُ عيني، انتظرتُ ساعاتٍ قاسيةً كالحجر... انتهى الليل وانبلج صبحٌ جديد، ويبقى جدار الغرفة خاويًا من هذه الأخيلة...

كرَّرتُ ذلك في ليالٍ أخرى، لكنَّ شيئًا لم يحدث البتة؛ وكأن الحائط قد فقدَ ذلك الإحساس المتألق والحيوية المفرطة فاستحال إلى جدارٍ أصمٍّ في غرفة بائسة... كنتُ أتساءل بحزن : هل ذاب كل شيءٍ في الفراغ المُعتم ؟!... قفزتُ إلى الجدران، أتلمسها، أتحرى زواياها ونتوءاتها وحتى غبارها.. أردتُ أَنْ أصرخ بأعلى صوتي، ولكن خشيتي من الآخرين هي التي منعتني... وهكذا انتهت أيام الأرق الجميل، وعدتُ إلى كآبةِ مَنْ يفقد عزيزًا على قلبه.

قرَّرتُ في تلك اللحظة الموغلة في الإحباط أن أتعلم فنَّ الكاريكاتير... في البداية استرجعتُ كل ما تعلمتُه في المدرسة عن فنِّ الرسم، ثم حاولتُ التقليد... ولكنني وجدتُ رسوماتي بائسة، لا

ترتقي إلى جمال مخلوقات الأرق.. فذهبتُ إلى صديقٍ يتعاطى الفن، وقد تخصَّصَ في رسم الكاريكاتير صيفًا في الأماكن السياحية... تقدمتُ إليه بأن يساعدني في أن أتقن فنَّ الكاريكاتير.. ولكنه نظر لي مستغربًا ومستفزًا وغاضبًا، وصرخ بي:

ـ المواهب لا تُهدى ولا تُباع.

اتشحتُ بخجلٍ مُرٍّ وأنا أعود خائبًا من لقائه... وفي تلك اللحظة قرَّرتُ أن أحقِّقَ طموحي في استعادة مخلوقاتي القديمة، وأجعلها واقعًا.. وكما يُقال: (إن طريق الألف ميل يبدأ بخطوة).. فقد بدأتُ بهذه الخطوة الصغيرة المتعثرة واليائسة، والتي كلَّفتني جهدًا ووقتًا، وكلَّفتني تقريعًا من زوجتي التي اتهمتني بإضاعة الوقت، والقيام بأعمال صبيانية غير مفهومة.. ناهيكم عن توسيخ الشقة الصغيرة برُكامٍ من الأوراق والأقلام...

ومع إن رسوماتي استمرتْ بنفس الوتيرة من الرداءة، لكنني بقيتُ مُصِّرًا على استحضار ما فقدته.. ورغم الجهود التي بذلتُها، لكن النتيجة كانت كما هي؛ صور باهتة لا طعم فيها... لكن التحدي هو الذي جعلني أتحمل مرارة الفشل.. وشيئًا فشيئًا؛ تمَّ رأب الصدع الروحي وقهر اليأس.. أدركتُ بعد أشهرٍ من التعب المُرِّ أنني قادرٌ على ممارسة هذا الفن.

ذات مساءٍ خرجتُ إلى مركز المدينة، أحملُ عدة الرسم كاملة، أوراق وأقلام وكراسي ونماذج للعرض... وضعتُ عدتي في منطقة

مزدحمة، يرتادها السُّواح، وحيث يتكاثر فنانو البورتيريهات وبائعو الصور الفنية... كنتُ خائفًا؛ مترددًا...

فجأة... جلستْ امرأةٌ على الكرسي المقابل.. طلبتْ أن أرسم لها صورة كاريكاتيرية.. تأملتُها وحباتٌ من العرق تتصبب من جبيني.. امرأة فاتنة، وجهها كالرخام، وشعرها يتطاير ليكوِّن أقواسًا من الألوان... حاولتُ أن أعالج الصورة وأنا أبحث عن عيبٍ في الوجه، فلم أجد سوى عينين تشِّعان بزُرقةِ البحر...

وبينما أنا منهمكٌ في الرسم، حتى وجدتُ حلقةً من المتفرجين يحيطون بي، وهم يغرقون في ضحكات تنم عن استهوائهم للرسم؛ ذلك ما استطعتُ أن أسمعه من خلال التعليقات المشجعة... وحالما انتهيتُ من إكمال صورتها؛ حتى اثنتْ عليَّ وسلمتني قطعة نقدية، وهي في تمام الغبطة... وعندئذٍ بدأ سيلٌ من المتفرجين بطلب صورة لكل منهم... وهكذا، أصبحتْ هذه الهواية عملًا لي وأنا وسط حلقة من الفرجة، فوطَّنتُ نفسي على الاستمرار في هذه المهنة، متذكرًا الأخيلة التي فقدتها، وقد قرَّرت أن أستمر.. أذهبُ إلى هناك وأعودُ ليلًا وجيوبي عامرة بالنقود.

في ليلة حافلة بالناس؛ كنتُ مشغولًا بالرسم... وفجأة، برز رجلٌ غريبُ الملامح، أزاح الزحام وكلَّمني بصوتٍ أجش، وكأنه قد بزغ من صمت الليل.. سألني :

- هل أنت عيسى بن هشام ؟

أجبته :

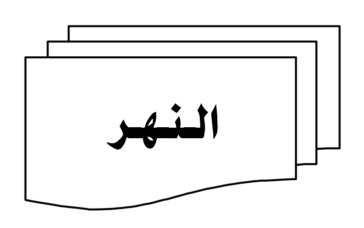
ـ نعم

عندئذٍ قادني من يدي وهو يتأبط أوراقًا طويلة، عابرًا حلقة المتفرجين الذين أصابتهم دهشة مماثلة لدهشتي... فتح حزمة الأوراق وهو يستقرئ ملامحي ويقيس ردود أفعالي... فإذا بي ـ ويا لهول المفاجأة ـ أمام مخلوقات أخيلتي التي أضعتُها ذات يوم.. كلها مسفوحةٌ على الورق دون حِراك..

تأملتُها بمزيجٍ من العاطفة والرغبة والدهشة، وأردتُ أن أعانق الورق.. فكأنَّ معجزة أعادتْ لي هذه الأخيلة التي افتقدتُها طويلًا، وما زلتُ أبحث عن أرواحها في قارعة الطرق وأماكن السياحة.. وكدتُ أَنْ أضمها إلى صدري وأحتفظ بها إلى الأبد... غير أنني انتبهتُ إلى نفسي فجأة، ثم التفتُ إلى حلقة الفرجة المحيطة بي، والتي كادت أَنْ تتبدد... أعدتُ الأوراق إلى الرجل الغريب، أعدتُها إليه غير مبالٍ بالدهشة التي شلَّت حركته... قلتُ له:

ـ لست بحاجة ماسة لهذه الأوراق.. لقد فات الآوان.

وعدتُ إلى حلقتي، أتوسل الآخرين لكي أرسمهم وأحصل على نقودهم.



النهر

كان صيف ذلك العام حارًا كالعادة، ولكن بوادر أفوله قد لاحتْ قليلاً، بعد أن انتهى "آب اللهَّاب" كما يصفه أبناء المدينة.. لسعات البرد الخريفية عند أذان الفجر، وانكماش النهار بعد أن كان طويلاً، والشمس التي طالما صهرتنا بفيض حرارتها أصبحتْ تغمر المدينة بدفءٍ مستحَّب، ثم تنسحب برشاقة لتختفي في أفق مُلَّون بالغيوم... لم نكن نحب الصيف يومًا ولم نستسغه، لكن متعة السباحة في الشط، والانغمار الطفولي بين رشَّاش الماء، والتزحلق من الجرف إلى الماء عن طريق المسنايات التي نصنعها من طين الجرف ورمله، نتراكض بين الأشجار في أطراف البلدة، ثم نقذف أجسادنا التي لوَّحتها الشمس في لُجّة النهر الذي لم يتوقف يومًا عن الجريان.

كان اسم مدينتنا (سويج الدجة) ولكنهم غيَّروا اسمها تيمنًا بالنهر، فأصبحتْ تُدعى (ناحية الغرَّاف).. لم نشعر بفحوى التغيير، فقد كان النهر يستغرق الناس جميعًا، ويشكِّل جزءًا كبيرًا من حياتهم.. النسوة يغسلن الأواني وما اتسخ من الملابس على حافته، والشباب يرمون شباكهم لصيد السمك، بينما البعض الآخر يجعله مجالاً

للترويح عن النفس بالتسكع على ضفتيه... لكننا كنا نملأ البلدة ضجيجًا ومرحًا؛ نحن أطفال سويج دجة، ندكُّ الدروب بألعابنا التي نصنعها بأيدينا (الطرام والسيمة) ونجري محلِّقين في فرح، حيث تنتهي الأزقة عند حافة النهر.. وحالما نصطدم بجرفه الرملي؛ حتى نتسرب ونذوب فيه... كان أهلنا يحذِّروننا من سمكة سامة أطلقوا عليها (دودة الزعيم).. ورغم أنها لم تلدغ أحدًا مِنَّا؛ لكننا كنا ننسج قصصًا عنها لا تخلو من بطولات كاذبة.

وحينما نشبع من النهر، نركض باتجاه الكورة التي كانت المعمل الوحيد في المدينة، وحالما نرى غبار سيارة قادمة من بعيد حتى نتوقف عن ركضنا، ننتظر مرورها بقربنا، ثم ننطلق في سباق معها، ننغمر في موجة غبارها، لكنها تبتعد عنَّا مُسرِعة، فنضطر أن نعترف بهزيمتنا؛ ولكن بطريقة لا تخلو من الكبرياء (إن طراماتنا غير قادرة على السبق لسائق مجنون مثل "سبتر خان")... هذا ما نعزِّي به أنفسنا ونحن نرتاح قليلاً من الركض المتواصل... وسبتر خان هو سائق قديم من أصل هندي، يمتلك سيارة خشبية لنقل الركاب بين الناصرية والشطرة عبر الغراف، يشتهر بسرعته ومهارته.

لاحظنا أنَّ النهر ينحسر كل يوم ويتضاءل، حتى استطعنا أن نعبره مشيًا... وفي مساء خريفي طافح بالملل؛ رأينا نهرنا يابسًا لا ماء فيه، زاغت محاجرنا خوفًا، ولذنا بأمهاتنا نشكو لهنَّ حال النهر،

وكيف انحسرت مياهه... انتشر الخبر بين الناس، وعلَّل البعض السبب في أمور لها علاقة بالري وسُدَّة البدعة... لكن توالي الأيام جعل المدينة عطشى.. وكانت الأحاديث تتمحور عن هذا الجفاف المفاجئ، لذلك بادر البعض بحفر الآبار في النهر... حمادي المؤذِّن أعلنها قبيل صلاة المغرب في الجامع الوحيد.. وعاشور أبو البريد ظلَّ ينقلها وهو يوزِّع الرسائل... حتى انتشرت هذه الآبار، وأصبح لكل عائلة بئر؛ تتزود فيه بالماء الذي كان خابطًا ومحمَّلاً بالرمل.

وحينما فتحتْ المدارس أبوابها لعامٍ جديد؛ كدنا ننسى النهر، وننشغل بالدروس، ورحنا نشبع فضولنا في نشيد الاصطفاف الصباحي، والمعلمين الجُدُّد.. وكنا نهمس لبعضنا عن الدروس الجديدة والتلميذات الخجولات اللواتي يشاركننا في الصفوف.. كنا نتحدث بحذر عن الاتجاهات الفكرية للمعلمين، نحكي لبعضنا في الاستراحة ما بين الدروس: (يمكن أستاذ أمجد شيوعي.../ شلون عرفت؟.../ لأنه يذكر أسماء أجنبية... أما أستاذ حسين فهو قومي../ شلون عرفت؟.../ لأنه يتكلم عن الوحدة العربية)... وهكذا جعلنا من أنفسنا خبراء في السياسة... ولم نكتفِ بذلك، بل تحزبنا وصرنا نرطن بكلمات جديدة: (عفلق، ماركس، الاستعمار، الرجعية...) كان لدينا استعداد طبيعي لأن نتحزب ونتحارب، بينما تمتد أسوار المدرسة لتعصرنا بين صفوفها... كنا نتلقن آياتٍ قرآنية وقصائدَ وكلماتٍ جديدة، بينما كانت الساحة المتطاولة للمدرسة فضاءً هائلاً

لخطواتنا المشاكسة، لكن المدرسة لم تنسينا ما ألمَّ بنهرنا الصغير... لماذا نشف؟ أين مياهه اللاهثة التي ترتطم على ضفتيه؟.. كُنَّا نتذكر الشموع التي تتراقص على مويجاته، شموع مضيئة تفترش لوحة خشبية معطَّرَّة بأوراق بالياس، تحملها صبايا يتلونَّ نذورهنَّ وأمنياتهن.. وبرفقٍ يصل إلى حد الخشوع؛ تتنساب هذه الشموع لتؤنس المياه الجارية، وتصافح المويجات التي تتوهج في ليل مخضل بالندى والدعاء.

لم يعتقد أحدٌ مِنَّا بأنَّ النهر سيتحول إلى رُكامٍ رمليٍّ تملأهُ آبارٌ مشوَّهةٌ كالندوب.. كم ساورتنا ذكرياتٌ وأفكارٌ عن ماضيه القريب؛ حينما كان في عنفوانه ينساب بين البساتين كثُعبانٍ خرافيٍّ، يسقي الزرع ويشبع الضرع... كان نهرنا حيوانًا أليفًا يعانقنا برفق، ولكنه حينما يغضب يتحول إلى وحشٍ كاسر... يحذِّر الأهل أبناءهم من السباحة قُربَ الجسر، حيث النقّارة، وهي مساحة عريضة تدور فيها المياه بشكلٍ لولبي، حيث يعيش هناك كلب النهر، الذي يختار ضحاياه بعناية؛ كما تقول لنا أمهاتنا عنه... ورغم أننا لا نصدِّق مثل هذه الإشاعات عن كلب البحر، لكن قصة أحمد جعلت فرائصنا ترتعد، وأجبرتنا أن نرفض التحدي للنقارة وكلبها الرابض في جوفها السحيق.. وأحمد سائق حافلة لنقل الرُّكَّاب، كان مُسرِعًا في الطريق الترابي القادم من الناصرية، وقبيل أن يصل إلى الغراف انقلبت سيارته الخشبية فمات بعض ركابها وجُرح آخرون، أمَّا

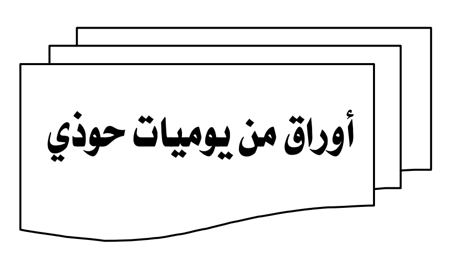
أحمد الذي خرج سالمًا من الحادث؛ فقد أُودِع التوقيف في سيراي المدينة... في اليوم الثاني للحادث، كان الجو حارًا، فطلب أحمد من حارسه أن يستحم؛ حيث النهر في عنفوانه والنقارة المقابلة للسيراي تطفح بالماء وكأنها نافورة من الأمواج المتوثبة.. دخل أحمد السائق بهدوء إلى النهر، غمر جسده المتعب، غطس مرةً وأخرى، ثم تلاشى في الماء.. كادت عيون الحارس تغادر محجريها من الفزع، صرخ طالبًا النجدة، غير أن صراخه ذهب سدى... بعد يومٍ كاملٍ من البحث بمساعدة غوّاصٍ محترف؛ لم تظهر الجثة.. مما جعلنا نصدِّق قصة أمهاتنا عن كلب النهر... في اليوم الثالث وقفتْ أُمُّ الغريق على حافة الجسر، مُمسِكة إناءً من اللبن، وبيدٍّ مرتعشةٍ قذفتْ بالإناء على صفحة الماء وهي تصرخ: (أحمد.. يمه أحمد..) كان صوتها صهيلاً جامحًا هزَّ المدينة من أقصاها إلى أقصاها، حتى كأن الزمن قد تجمَّد تحت لهاثها المكتوم... كان الجمعُ الغفيرُ من الناس يرقبون هذا المشهد بعيونٍ زائغةٍ من الفزع، لعلَّ كلب الماء سيطلق أحمد حيًّا طليقًا.. وفجأة، انفجر الصمت عن بروز جثةٍ منتفخةٍ طفتْ على سطح الماء... ومن تلك الحظة أصبحنا نهاب النهر، نحسب ألف حسابٍ لنقارته، تمتلكنا موجة من الفزع حينما يقفز بعض المتهورين إلى لُجته...

تذكَّرنا كل ذلك ونحن نشهد موت النهر وجفافه.

رويدًا رويدا بدأت ملامح العطش تبدو على ملامح المدينة، تجلَّتْ من خلال التصحر الذي أحاط بها، وهبوب رياح محمَّلة بالغبار.. الحقول التي كانت مكتنزة بالخصوبة تشققت قشرتها وبدتْ واهنة، حتى الجواميس التي تتخذ من النهر ملاذًا لإطفاء لهيب الحرارة؛ أصابها الهُزال وشحَّ حليبها... كان الباعة وأصحاب الحوانيت والموظفون الصغار يذهبون إلى مركز المديرية، لعلهم يحصلون على أية معلومة لعودة المياه.. لذا انعكس الأمر على أمزجة الناس فأصبحوا يتشاجرون لأتفه الأسباب.. حتى المقاهي التي كانت تضج بروادها أصبحتْ خاوية، وإذا صادف أن ذهب أحدٌ من أهل المدينة هناك فيشرب شايَّهُ بصمت، ثم ينسحب إلى بيته بعد أن يطلّ على الجسر؛ لعله يحمل لأسرته خبرًا سارًّا... لكن أصحاب الحوانيت كان لهم رأيٌ آخر، فقد وقف حجي إسماعيل في وسط السوق، وصاح بأعلى صوت: ياجماعة الخير، إذا بقينا هكذا فسنموت جوعًا وعطشًا... ثم أضاف وهو يحدِّق بالوجوه الحائرة التي أحاطت به: مأمور المركز ومدير الناحية وكل زناكين البلد يأتيهم الماء الصافي إلى بيوتهم، وكذالك الخضرة والحليب واللحم، لذلك لا يكترثون لعطشنا أو جوعنا...

كان حجي إسماعيل هائجًا حتى أنه بكى وشتم ورمى عقاله على الأرض، بينما كانت وجوه الحشد الذي تجمَّع في وسط السوق تبدو غاضبة ومتعاطفة، ولكنها انسحبت إلى بيوتها، بل أنَّ البعض انتقد

حجي إسماعيل هامسًا لزوجته: "الحجي بطران.. ما يخاف من الحكومة"... وهمس شخصٌ آخر وهو يستتشهد بمثل شعبي: "يردس حيل الما شايفهة، والشايفهة يشد عمامة"... أمَّا الآخرون فاكتفوا فقط بالدعاء أن يأتي النهر مرة أخرى، محمَّلاً بالخير، وأن يكتسح كل الآبار الآسنة التي استقرتْ في قعره.



كمرآةٍ مُهشَّمةٍ؛ تشَّظتْ تصوراتي، تناثرتْ على الأرض؛ بعد أن كانت حافلة بالأخيلة... هذا الذي يقف في بؤرة الصورة، منتصبًا، رافعًا عنقه بشموخ، وأذناه تخترقان الهواء، بينما تنساب خصلات شعره على امتداد عنقه الجميل، يدكُّ الأرضَ بسنابكه حالما ينطلق راكضًا، فيرتجَّ جسده وتتموج عضلاته، أخاله - أحيانًا - وكأنه يرقص في الهواء.

لا.. ليس ذلك الجواد الذي تخيلته، فهذه الصورة تبخرتْ كحلمٍ عابرٍ حالما رأيتُ تلك السيارة الأمريكية الصنع من نوع "بيوك"، تآكلت حواشيها من الصدأ، رغم محاولات الصيانة والترقيع، ينبعث منها دخان رصاصي مشوب بالسواد يوحي بأنَّ محركها قد أكل الدهر عليه وشرب.

- على بركة الله..

قالها شريكي، وهو يسلِّمني سيارته، وكأنه يقذفني إلى المجهول، فهو يعمل فيها نهارًا، ويسلِّمني إياها ليلاً، لأبقى ساهرًا معها حتى الصباح الثاني...

وهكذا وجدتُ نفسي وراء مقود سيارة تخيلتها جوادًا، وأنا أتهادى في ليل "أوتاوة" الملثم بالثلج والغموض.. فأنا حوذيٌّ ابتداءً من هذه الليلة، بل من اللحظة التي وضعتُ على سقفها إشارة (تاكسي)، وليس عليَّ سوى الامتثال لأوامر الزبائن، ونقلهم أينما يشاؤون.. وعليَّ من هذه الليلة أن أنسى كل شيء: أحلامي أو أوهامي، طموحاتي العتيقة التي تبخرتْ، وأن أركِّز على العمل بهِمَّة وشطارة... فلأتخلص من يبوسة الحلق، ومن بقايا الخوف والتردد، ولأنطلق مسرعًا في شوارع مدينة غريبة، أخترق نسيج الضوء والظلمة اللذين يتشكلان عبْر أعمدة الكاشفات الضوئية... ومع أنني - في ليلتي الأولى - من المفترض أن أبحث عن زبون في زحام الطريق، ولكنني كنتُ أخشى لقائي بأول زبون.. كنتُ أرى سيارات التاكسي تتلوى في الشوارع كأسماك القرش التي تبحث عن طعامها، أما أنا فكنتُ متسربلاً بخوفٍ شرقيٍّ تلَّبسني منذ الطفولة، ورافقني حتى كهولتي...

فجأة، ارتفعت يدٌّ في الهواء : تاكسيييي...

كدتُ من ارتباكي أن أصطدم بباص قادم من الاتجاه الآخر، ولكنني أفلتُّ من ورطة مؤكدة، وتوقفتُ بشكلٍ يوحي بحداثة تجربتي... دخلتْ امرأة وهي تذكر عنوان وجهتها.. وحينما حاولتُ الاستفسار؛ أظهرتْ تبرمها وأشارتْ إليَّ أن أتبع توجيهاتها.

- قف هنا.

منحتني الأجرة وهي تغادر السيارة... عندذاك التقطتُ نفَسًا عميقًا، وكأنني أحملها على ظهري... هل شَعَرتْ بارتباكي ؟.. هل أدركتْ مرارة اللحظة التي ارتشتفها ببطء، وعلى مهل، أثناء الطريق ؟.. لكنني - مع ذلك - فقد شعرتُ بخيطٍ من الرضا، لأنني لامستُ الخطوة الأولى لطريقٍ قد يطول قليلاً.

كنتُ أغذِّي في نفسي روح المثابرة والإصرار. مشيئة الحياة تحتِّم عليَّ أن أتنازل عن طبيعتي، مشاعري.. أنْ أتحول إلى شخص آخر... استنجدتُ بالذاكرة: بلدتي الصغيرة والبعيدة، التي تغفو في النسيان.. كانت آنذاك تختبئ بين بساتين النخل والصفصاف، وكان هناك خان كبير فيه خيول متعبة، وبعض المكارية الذين ينقلون الركاب من الحساوية والفلاحين إلى قُراهم.. هؤلاء المكارية جعلوا من هذا الخان مجالاً لشجونهم وعِراكهم وأصواتهم المبحوحة تحت شمس لافحة، لا ترحم...

انتشلتُ نفسي من هذا الإحساس.

- أنا لستُ مكاريًا.. لا لا.. أنا حوذي في مدينة لا تبعد عن القطب الثلجي إلا بضع سنتمترات صغيرة في خارطة العالم... وماذا تريد أن تفعل في هذه المدينة التي تتلألأ كالكريستال ؟.. أتريد أن تصبح مديرًا أو وزيرًا ! وأنت الذي أتيتَ بخفي حنين من الموانئ العربية وتخوم مُدنها، والتي بخلتْ عليك حتى بسقفٍ يحمي زمهرير الخوف الذي يجري في دمائك الملوثة بالحزن...

انتشلتُ نفسي من هذه الأفكار وأنا أسير في شوارع خاوية.. عيناي تترصد الذين يبحثون عن تاكسي، وكأني قِطٌّ ينشب أظفاره في جدران المدينة، كي يبدِّد بعض العتمة المحيطة بها... كنتُ أبوح لنفسي بكلماتٍ لا رابط بينها، ولكن كلماتي تدور حول وأد الأجنة الشرقية التي ترافقني، وفتح كوة صغيرة على عالمٍ آخر:

- يجب أن تكون أدرى من أهل هذا الوادي بشِعابه.. أن تفتح عينيك لتعرف كل شيء: الشوارع بأسمائها وأرقام بيوتها، المكاتب الحكومية والمكاتب الخاصة، الوزارات والمستشفيات والتجمعات التجارية، المقاهي والمطاعم والكازينوهات، الكنائس والمساجد والمكتبات، المواخير والفنادق، وحتى المومسات ودور البغاء، محطات القطار والباصات ومواعيد الحافلات وتقلبات الجو ونشرات الأخبار... أشياء كثيرة يجب أن تعرفها.. ليس لديك عذر، فأنت وقاع الشارع توأمان، وما عليك سوى الانسجام بعالمك الجديد.

لم تكن البدايات هيّنة كما كنتُ أعتقد.. تتعرض للحظاتٍ عسيرة، تتشنج من الارتباك، وكأن عطشًا معتقًا يترسب في شفاهك التي تشققت كأرض قاحلة جفَّ ماؤها، والسنوات تركض لاهثة، وتتكوم على براعم العمر، يصاحبه النأي عن وجوهٍ غادرتها ذات يوم، وجعلتها مكبَّلة بانتظارٍ أبدي... هل حقًا مضتْ كل هذه الأعوام وكأنها رشاش من الضوء يخترق ظلمة العمر ؟.

ولكنني كنتُ أشعر أحيانًا، أنني أُحمِّل الأمور أكثر من طاقتها.. العمل في هذه الأصقاع هو الذي يشكِّل شخصية الإنسان وكيانه.. والزبائن بشرٌ مثلنا، قد يكونون على خُلقٍ رفيع، ولهم همومهم وإحباطاتهم؛ ولهم نجاحاتهم أيضًا.. أستطيع أن أعزف على الوتر الدقيق في شخصياتهم، أن نفتح موضوعًا عن أحوال الطقس اليومية مثلاً.. ولا تكترث لركاكة اللغة، فلا أحد يتوقع أن نغرِّد اللغة كأبنائها... أمَّا إذا كان الزبون مستعجلاً، فما عليك سوى أن تلهب جياد العربة بسياط السرعة لإرضاء الزبون، والحصول على غيره.

هذه المهنة التي أتبرم منها الآن، لم أحصل عليها بسهولة.. هناك امتحان تسبقه دورة في الإلمام بقانون التعامل مع المجتمع، وتحاشي التمييز بين الناس على أساس اللون أو الجنس أو العمر أو القابلية الجسدية والذهنية.. كما درسنا جغرافية المدينة، وتلافي الطرق الطويلة، وعدم إزعاج الناس، وبناء روحية الاندماج... ولكن ما إن تحصل على الإجازة حتى تجد نفسك في سوق لا ينتمي إلى المحيط الكندي، فأنت في وسط السوق السوداء، والسلوك الأسود من اأبناء جلدتك العرب والأفارقة والآسيويين، لهم منطق السوق في الشراء والبيع لمزادات معلنة؛ أو غير معلنة.. تلمس استغلالاً بشعًا من إخوتك المهاجرين أمثالك !، والذين يحتالون على القيم الرائعة للقوانين الكندية.. ما العمل؟.. وأنت الذي ليس لديك سوى الخيارات المحدودة.. أنت الواهم في الرفاهية والاستقرار في هذه السهوب النائية.. ماذا تفعل حينما تجد أن فُرص العمل موصدة أمامك نتيجة

لضحالة تجربتك وندرة مهاراتك؟.. ستلملم بقايا الروح، وتحاول أنْ تروِّضها على ما هو ممكن.

كان أبي يحبُّ الخيول.. اقتنى مُهرًا صغيرًا، أسود كالليل، من فرس أصيلة.. وسمَّاه (الحولي).. شيئًا فشيئًا يكبر الحولي، وفي فترة وجيزة تحوَّل من مُهرٍ صغيرٍ إلى جوادٍ مهيب، تنزلق خصلات شعره على عنقه السامق... كم كان أبي مفتونًا بجواده، متفاخرًا بقوته ؟.. يأخذه كل يوم إلى النهر، فينغمران معًا في المياه المتدفقة.. كنتُ أرمقهما من الضفاف بلهفة... نعود إلى دارنا مساءً.. يُسارع أبي إلى إطعام الحولي، ويربطه على جذع النخلة الوحيدة في فناء بيتنا... ذات مرةٍ عاتبته أمي على اهتمامه المتزايد بجواده.. قال لها وهو يداعب فروة رأسه: أتريدين الحق؟.. إنه بمثابة ابني وصاحبي وكل شيء في هذه الدنيا...

كانت سطوة أبي علينا تجعلنا غير قادرين على مناقشته.. يحلو له أحيانًا ان يسافر مع جواده إلى القُرى المجاورة.. يضع على صهوته السرج المُرَّصع بالصدف الفضيّة، بينما تتدلى منه الأحزمة الملونة. ثم يرتدي أبي أفخر ملابسه؛ العقال الأسود والياشماغ، ثم العباءة البُنِّية التي تشفُّ عن صايته الأنيقة وحزامه السميك. وهكذا يظهران في تناسق مهيب من الأناقة... وحالما يخرج من زقاقنا، حتى تدك سنابكه الجادة الإسفلتية المتربة وهو يمشي بوقار، فيثير زوبعة من غبار أليف ينزلق برفق على رموش عيوننا.

ذات صباحٍ مُعطَّر بالرطوبة.. استيقظ أبي كعادته للصلاة، وحالما أكمل آخر أدعيته؛ ذهب ليطمئنّ على الجواد... سمعنا صرخة أبي الملتاعة.. قفزنا من أفرشة النوم وبقايا نُعاس يسيل من وجوهنا، لنجد جوادنا ينازع النفس الأخير، بينما أبي يعانقه... لأول مرة أرى دموعًا تتدفق من عينيه وتسيل على لحيته البيضاء كحُبيبات من الندى.. عند ذاك بكيتُ طويلاً، شاركتني أمي وبقية إخوتي.

قال جيراننا الذين تجمعوا: ربما لدغته عقرب... وقال آخرون: إنها أفعى سامة أنشبتْ أسنانها فيه.. بعضهم اعتقد أنه أُصيب بمرضٍ غامض... أمَّا أبي فقد رفض كل هذه الفرضيات قائلاً: إنها عين الحسود التي قتلته غدرًا.

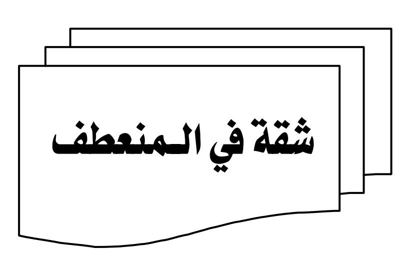
أمَّا أنا.. فلا أعتقد أن أحدًا يحسد سيارتي هذه، التي كانت تشق طريقها في ذلك الثلج المنهمر، والذي كان يلفُّ زجاجها الأمامي؛ ثلجٌ بامتداد الأفق ينهمر بكثافة تحجب الرؤية، حتى أن الماسحات عجزت عن تنظيف الزجاجة الأمامية. تضببت الرؤية وكأنَّ البرد قد جمَّد أوصال الحديد، والثلج مفروشٌ على امتداد الأفق، يغلِّف أشجار الصنوبر والأسطح القرميدية المخروطية الشكل.. إنه شتاءٌ قطبيٌّ حيث يتجمد كل شيء، حتى الأنهر والبحيرات... لكن أوتاوة تتحدى البرد وتفرح بالثلج فتصنع منه مهرجانًا للترويح عن النفس والمتعة، فتُقام النُصب الجليدية التي تبدو في الساحات، فنانون من كل بِقاع الأرض يُظهرون مهاراتهم بأجمل اللوحات، فيحولون الثلج

الأصم إلى كريستال ينبض بالحياة.. تتحول (ريدو كنال) إلى مسرحٍ للتزحلق على الجليد، وإلى فضاء عريض للرقص والمتعة والرياضة.. بينما أشجار السرو تتبرج بالأضواء الملونة.

كنتُ معتكفًا على نفسي وأنا أنتظر في سيارتي زبونًا عابرًا؛ رغم البهرج اللوني والألعاب النارية التي تنعكس على نهر أوتاوة.. وحيث "شاتو لورييه" - قصر تاريخي تحول إلى فندق - يمتد إلى أسلوب البناء القوطي الذي جلبه المهاجرون الأوروبيون وهم يؤسِّسون اللبنات الأولى لحضارتهم في صقيع هذه الأرض الجديدة. كنتُ أتمنى أن ينتهي هذا المهرجان، حتى أعود إلى بيتي كخفاش يخشى ضوء الفجر...

رأيتُ رجلاً وامرأة يؤشِّران لي.. في الطريق كانت أنغام الموسيقى تتغلغل بين حبيبات الثلج، وكان الطريق حافلاً بمخاوف الاصطدام أو الانحراف أو التزحلق.. لكني أوصلتُ الزبونين بسلامة... وحينما عدتُ إلى مركز المدينة من جديد؛ فكَّرتُ أنْ أسلك الطريق السريع، بينما الألعاب الناريِّة ما زالت تخترق ظُلمة السماء، لتكوِّن نافورات من الأضواء والألوان... في تلك اللحظة تذَّكرتُ أضواءً ناريةً تقتحم ليلَّ بغداد، ولكنها تحمل الموت والدمار... أخبار قصف بغداد تنبعث من جهاز الراديو.. مشهدان يبرزان أمام عيني في لحظة واحدة: أوتاوة وهي تغرق في أضواء من الفرح.. وبغداد التي تغرق أيضًا في أضواء الموت...

ضغطتُ على دوَّاسة السرعة وكأنني أهرب من اللحظة.. ففقدتُ السيطرة، وأصبحتْ سيارتي تتزحلق وتترنح في اتجاهاتٍ خطرة... أحسستُ برهبةِ الموتِ وأنا أرى شاحنةً ضخمةً تأتي باتجاهي... أغمضتُ عيني لكي لا أرى فداحة موتي... ولكن معجزة غير منطقية جعلت سيارتي تقف على مسافة قدم عن مسار تلك الشاحنة المسرعة، والتي تسبقها عاصفة من رشاش الماء والثلج والهواء !.. فتحتُ النافذة لأتحسَّس جسدي.. كنتُ أذوبُ في حالةٍ من الذهول... بينما رذاذ الثلج يعانق حبات العرق المتفصد من جبهتي.



وكأنها بقعة ضوء؛ سقطتْ عليَّ هذه الشقة من السماء، لتبدِّد عتمة تخبطتُ بها منذ وصولي إلى البصرة.. ورغم أنها لا تتوفر على شروط الأُلفة أو الراحة - ليس فيها ما يحمي من حَرٍّ أو قرٍّ - لكنها كانت بمثابة هامش فردوسي، فلأول مرة أجد سقفًا يؤويني من الخيبات المتعاقبة.. طرقُ أبوابِ الأقارب.. الغُرف الموَّقتة.. المعارف الذين ينظرون إليك بشكلٍ غير وديٍّ حالما يعلمون بحاجتك المزمنة إلى مأوى... أمَّا الآن، فعليَّ أن أفتخر بأنَّ لي حيّزًا من شقة تحاذي سوق الهنود، حتى انني أستطيع أن أتحسس التوابل في ذلك السوق القديم، أشمُّ فيها شرقنا القديم، أستحمُّ تحت أمطار استوائية، ممتطيًا ظهور الفيلة، فأدلف في قصور مهراجات الهند...

أفتحُ نافذة قد تآكل دهانها، واختلط بغبار رطب.. كانت محلة (البجاري) مستلقية أمامي، وكأنَّ منازلها العتيقة تتكئ على بعضها خشية السقوط... أيقظني من هلوستي أصوات الباعة المتجولين الذين يذرعون الحيَّ ليلاً ونهارًا... وأحسستُ أن شقتنا لا تنتمي إلى ما يحيط بها.. مملكة خربة لنزلاء يأتون من مُدنٍ مختلفة، سُرعان

ما يجدون أنفسهم منغمرين في وشائج المكان، رابطة ترتقي إلى حد التقارب والإحساس بالمشترك.. لقد ذابت الحواجز بيننا، كلٌّ منَّا هجس الملامح الفكرية والمزاجية للآخر من خلال جريدته وأعقاب سجائره... وهكذا صهرتنا هذه الشقة في تنّورها المتوهج، واحتضنتْ طيشنا وأحلامنا وأوهامنا، واتسعتْ لكل حماقاتنا... كُنَّا نشعر بأنها تطفو بنا على صفيحٍ ملتهب، وذلك لأن ما يحيط بنا ينظر لنا بريبة؛ لا تخلو من كراهيّة، وكأننا فائضون عن حاجة تلك المحلة.

استطعتُ أن ألملم نفسي... اشتريتُ سريرًا مستعملاً، وحاملة الكتب المصنوعة من الجرّيد، وبعض الأواني الرخيصة.. بينما تتدلى نافذة الغرفة على مدخل (البجاري) مما يسمح لي أن أتنفس فسحة الزُقاق وحركة السير غير المنقطعة.

كانت الأيام كفيلة بصنع الجسور مع الآخرين - من سَكَنة شقتنا - ليصبحوا أصدقاءً يشاركونني زحام التسكع، لوعة المقهى، تهويمة النوادي الليلية... أصدقاء الأحلام المتساقطة في هوّة الفراغ، حيث الدروب الشاقة التي نسلكها - أحيانًا - لإعادة التوازن مع الذات، في حقبة زمنية أشبه بساحة للمبارزة.

ينبغي أن تتكئ على حائطٍ يحميك، وأنت تتهجى نهجًا غير سالك.

في مساءٍ مُلَّون بالرطوبة.. كنتُ في غرفتي، منهمكًا في ترتيب أشيائي الصغيرة، وإذا بطرْقٍ عجولٍ على الباب.. وما إن فتحته حتى وجدتُ كيانًا نسويًا ملفوفًا بسواد العباءة.. أزاحتني برفقٍ وهي تتقدم صوب غرفتي، تسبقها عطورٌ نفَّاذة؛ تختلط بعفونة العَرَق المتصبب... سألتني عن بقية الشباب وكأنها تعرفهم واحدًا واحدًا.. وهل أنا جديد ؟ ومن أية مدينة ؟... دخَّنتْ سيجارة واستلقتْ غير مكترثة بارتباكي.. كانت تحدِّثني عن قريتها النائية وزواجها المبكر وهروبها وأشياء أخرى.. وكان تبرجها يشي بإتقانها لعبة الاصطياد... وجدتُ نفسي معلقًا في صنارتها، فغرقتُ في فحيح الرغبات المكبوتة وأنا أنفضُ عن نفسي جوعًا مزمنًا، متسلقًا أرضًا رخوةً وجسدًا لا يستجيب لمؤثرات النشوة.. وما إن سكنتْ فيَّ فورةُ العطش؛ حتى شعرتُ بعقدة الذنب... كانت صبيحة - لا أدري هل هو اسمها الحقيقي أو المستعار - تستعد للخروج وهي ترتدي عباءتها، بينما يدها تضع الورقة النقدية في علاّقة صدرها.. وما إن سمعتُ اصطفاق الباب حتى هممتُ بالخروج.

كانت الأمسية البصرية شاحبة حينما تلقفتني أزقتها السابحة في الغبار، ومن هناك اصطدمتُ بساحة أم البروم.. كانت فضاءً فسيحًا تتكدس فيه عربات البيع للمأكولات السريعة والمقاهي الشعبية، وسيارات النقل.. عالم مكتظ بالخطوات العجولة والزحام اليومي، مما جعلني أشعر بنشاز وجودي هناك.. فقررَّتُ أن أزور بيت صديقي الشاعر المعتكف في زاويته المعتمة.

- رهين المحبسين..

خاطبته وأنا ألجُّ صومعته..

أجابني وهو يرتِّب غرفته:

- أيها المتسكع المزمن، آن لك أن تستريح..

كانت غرفته الصغيرة حافلة بمئات الكتب التي تتسلق الرفوف، لكل كتاب حيويته وشخصيته، ألوانه وأشكاله.. إنها الحياة بكل عنفوانها تتدفق عبر هذا المخزون الهائل من الحروف.. كان منهمكًا في تحضير الثلج والمزة، والكؤوس من الكريستال، مما جعل هوّة واضحة ما بين بساطة الغرفة، وأناقة المائدة..

- ما هذه الأبّهة يا باشا؟..

قلتُ له وأنا أقذف ما تبقى من سيجارتي.

ضحك وهو يملأ كأسًا تتراقص كُراته الثلجية وتمتزج برحيق الزحلاوي، وهو يؤكِّد على روحية هذا الأكسير:

- ينبغي أن نُوائم بين عمق المضمون وبين جمالية الشكل.

عقَّبتُ ضاحكًا:

- إذا كان الراح هو المضمون فالكريستال هو توأمه..

تحدَّثنا عن حسان بن ثابت وخمريات أبي نواس، ثم عرجنا على مذكرات بابلو نيرودا وموته كمدًا، بسبب اغتيال ديمقراطية شيلي.. دخَّنتُ سيجارةً أخرى وأنا أبوح له:

- ارتكبتُ اليوم متعة طارئة..

ثم أضفتُ بعد أن اصطدتُ دهشةً تتسلل عبر تجاعيد جبهته:

- منحتني لذة، ومنحتُها بعض ما بجيبي من نقود.

رمقني بنظرة ساخرة لا تخلو من غيرة، قائلاً:

- أنتم تناصرون المرأة في ثرثرتكم اليومية، ولكنكم تستبيحونها في أول فرصة.

ثم أضاف:

- إنه الوحل الثقافي.

قلتُ له ضاحكًا:

- في صحة الوحل.

غرقنا في دوامة ثرثرة لا نهائية... ثم ودَّعته.

وأنا عائدٌ إلى شقتي، كان الليل عميقًا صامتًا... عرجتُ على أكشاك الأكلات السريعة، فالتهمتُ بعض الفشافيش وشربتُ شايًّا، ثم تسلقتُ بهدوء درجات شقتنا.

في الصباح تتدلى الشمس عبر النافذة، تتسلل بخشونة بين فراشي وكأنها تدفعني للخروج... يجب أن أستعد للمساء، فقد علمتُ أن ثمة خصاصًا لمدرس في ثانوية العشّار المسائية للبنات، وحالما قدَّمتُ طلبي إلى المديرة، حتى قبلتني فورًا... في اليوم الثاني استدنتُ مبلغًا من المال وذهبتُ إلى السوق، وأنا أهمس لنفسي:

- عليَّ أن أستعد لامتحان اللياقة أمام تلميذات أغلبهن موظفات.

اشتريتُ بعض الملابس الأنيقة كي تقيني من تهكمات أو تعليقات طالباتي اللواتي - في أغلب الأحوال - يجيدنَّ لُغة السخرية من المدرِّسين... هيَّأتُ المادة المقررة، وانتظرتُ المساء بنشوةٍ مَشوبةٍ بالخوف... وحينما وقفت أمامهنَّ؛ ذاب كل جليد التوجس، وأحسستُ بنضج الطالبات وقدرتهن على التحليل؛ رغم أننا كنا نمزج ما بين ضيق المقرر وبين رحابة ما يحيط به...

بعد أن انتهت محاضراتي؛ تسللتُ وحيدًا عبر شارع الوطني إلى الكورنيش، كانت أشجار اليوكالبتوس تحيط بـ"السيَّاب" تسند جسده النحيل، تؤنسه في معاناته الأبدية وهو يتلو أنشودة المطر لعراق ينزف أوجاعًا مُعتَّقة.. وكانت الزوارق البخارية تمخر شطَّ العرب، تنفذ عبر مسامات النخل المدلهم في الضفة الأخرى حيث التنومة... عرجتُ على نادي الفنون، استطعتُ أن أجد بعض الأصدقاء يتحلقون حول طاولة الشجن اليومي.. تحدثنا عن مواضيع مختلفة، لا رابط بينها، وتبادلنا نِكات مكررة... غير أنَّ همسًا سرى بيننا :

- اعتداءات متكررة على الرِفاق..
- مجرد سلوك فردي لا يمثِّل الموقف الرسمي للسُلطة.
- الجبهة في خطر.. إنهم يغتالون القواعد.. يبدأون بجزرة الوعيد، وينتهون بعصا التهديد.

كان الحوار أشبه بالفحيح المكتوم عن تصورات غائمة محبطة... لم أنبس ببنتِ شفة، كنتُ ساهمًا إزاء هذه الأفكار المتقطعة.. تذكرتُ

قبل أسابيع حينما احتفلنا بعيد الحزب على سطح شقتنا، كُنَّا قد هيَّأنا المائدة ولوازمها.. بعض الأغاني الهامسة.. أحاديث شتى وضحكات ودودة... وبينما نحن منهمكون في حفلتنا الصغيرة، نرقص الهيوة ونستمتع برطوبة الليل البصري؛ وإذا بحجرٍ كبيرٍ يهوي علينا كنيزك متوحش... ساد صمتٌ هائل، تحسَّسنا رؤوسنا. شهدنا المائدة التي تبعثرتْ إلى أشلاء.. وحينما اشرَّأب أحدنا لمعرفة الجاني، رأى ثلاثة أشخاص ذوي ملامح قاسية، يرتدون البدلات الزيتونية... قال وهو يضحك ساخرًا.

- إنها مجرد رسالة رقيقة من الحلفاء!.

لا شك أن عُتبة بن غزوان لم يفكِّر قط بشقتنا حينما بنى البصرة، وأسَّسها حجرًا حجرًا، ولم يدر بخلده أنَّ هذا الكيان المهلهل سيصبح عشًّا ألوذُ به ليلاً من مغبة التسكع المرير وتعثرات الليل.. وحالما أكون في غرفتي حتى أتحرر من إيقاع المقاهي وصخب الأرصفة الملوثة.

أخرجتُ الكتاب الذي أهدتني إياه طالبتي ذات العينين الفاحمتين، وكأنَّ عطرًا خُرافيًا يتضوع فيه.. نسيتُ حروف الكتاب وتعلقتُ بالإهداء.. تذكرتُ عتمة عينيها، شلالات الفرح السابح في سهول وجهها القمحي.. تخيلتُ أنني أتقدم إليها بطلب الزواج.. ولكنني تذكرتُ السخرية الداعرة من صديق بُحتُ له برغبتي في الارتباط بها.. استمر بالضحك، وقال لي:

- وفِّرْ عواطفك يا صاحبي.. راتبك البائس لعشر سنوات غير قادر على إنجاز حفلة زفافها..

ثم أضاف:

- هذا إذا قبلتْ بك بعلاً..

ومع أني أحسستُ بكلماته تصفع طموحاتي الصغيرة - كإنسان - ولكنني أدركتُ أنه يتمتع بواقعية تفوق تخيلاتي الساذجة.. لذا فقد اكتفيتُ فقط باستنشاق رسائلها، والبقاء ضمن دائرة الطيف الطبقي على قاعدة (مد رجليك على قدّ غطاك) كما يقول المثل.

كان الشارع يئنُّ من المجهول.. الجنود يملأون الطرقات وهم يتسكعون دون هدف.. عيون المخبرين تفترس البراءة الطارئة في الوجوه المتعبة التي تبحث عن السلع التي تختفي فجأة.. الشعارات التي تحاصرني كالتلوث في كل وقت وفي كل مكان.. و"أبو إقبال" - صديقي القديم - معتقلٌ في القاعدة البحرية، لأنه اشترى لأخته الصغيرة آلة طباعة باللغة الإنجليزية!... كنتُ أفكِّر في مصيره وأنا أتحسس جواز سفري الذي استخرجته بشقِّ الأنفُس.

وها أنا أعانق هذا الليل البصري.. كان القمر يهبط برقة على أمواج الشط ومويجاته، حيث تبدو الزوارق البخارية متعبة كنوارس تائهة.. وتبقى خطواتي مصرّة على المشاكسة في طرقات لا تعرف الشفقة... تسللتُ عبر سوق حنا الشيخ إلى الجسر، ومررتُ بمقهى "أبو مضر" فوجدتها مقفرة وخالية من روّادها... شعرتُ بالعزلة،

وكأن قضبانًا خرافية تطوِّق المدينة وتستل روحها، تلك المدينة الجنوبية التي تغرس جذرًا في التاريخ، فيمر الزنج والقرامطة وإخوان الصفا.. تستنشق في جنباتها عبق التاريخ وأريج الحضارة.. علماء ونحويون وشعراء ومؤرخون وعلماء فلك وأئمة مذاهب، تركوا ميسمهم على أديمها، شربوا من كوكتيل رافديها، واستظلّوا ببستانها.. البصرة؛ تلك البهية. ستظل عصيّة عليهم... هذا ما كنتُ أفكِّر به وأنا أتسلل إلى شقتي العتيقة... وفي تلك اللحظات؛ رأيتُ ظلّين يتعقبان خطواتي، يغرزان نظراتهما الحاقدة في لون قميصي.. ولكنني استطعتُ الإفلات منهما بعد أن تسلقتُ درجات الشقة راكضًا... ومن خلال النافذة المعتمة، قرأتُ همجية ملامحهما.

- شقتنا ستكون هدفا قريبًا لهجماتهم..

- أنت تبالغ في مخاوفك، الدنيا ما زالت بخير...

قالها صديقي وهو يداري ارتباكه.

كنتُ في المساء التالي أرقب حقيبتي وأنا أنتظر صهيل القطار الصاعد إلى بغداد... تحرَّك ببطء، كانت الصرائف والأكواخ السابحة في البِرك الآسنة تبدو كئيبة.. وكان القطار يتحرك بهدوء مقيت، يحملني إلى المجهول... بينما يبقى الوطن متأرجحًا، ساكنًا، سابحًا في الفراغ.



مدينة يحيط بها سبخٌ مفروشٌ بامتداد الأفق.. تبدو الملوحة من خلال هذا الأديم الأبيض كالكفن، تتلفح به تلك الأرض التي تتبسط من الرمل المتيبس حتى الخُضرة الغامقة، لنخلٍ يمتد بلا نهايات وكأنه يسدُّ منافذ الأفق.. بينما ينساب شطُّ العرب بصمتٍ، وكأنه يخشى هذه الغابة المدلهمة من الجذوع المتعانقة، والتي تنتهي بسعفٍ يبدو كجدائل صبية عذراء.. وحيث العذوق التي تتدلى، وتتوهج بالألوان، لتترك الجذع يرتفع ويتماسك، بينما جذوره تنغرز في التربة الدافئة، لتلتصق بالنهر والمدى الذي ينحسر تحت وهج شمس تتسلل في الأعماق المثقلة بالرطوبة...

في هذه الزاوية النائية والمسكونة بالصمت تبدو "الفاو" محاصرةً ما بين شط العرب والخليج والسبخة الشاسعة التي تتصل بالبادية الجنوبية... في جنوب الفاو، تمتد الجداول للتعامد مع شط العرب فتتغذى منه، لتتجه بعيدًا مُشَكِّلة احوازًا تمتدُّ حتى البحر.. هذه الأحواز حافلة بالقُرى المتناثرة، والتي تستظل بالنخل، وتتخذ من

جذوعه وسعفه مادة حيوية للبناء والسكن والعيش.. قُرى متناثرةٌ وبيوتٌ طينيةٌ تذوب في هذا الحشد الهائل من وشائج العلاقة بين ألوان الأرض وإنسانها المغرَم بالجذور.

وللنهر سطوته.. فهو الذي يرسم نبض الحياة من خلال ما يختزن من سفن شراعية وزوارق الصيد وناقلات النفط.. هذا النهر يزخر بالمهربين وصيادي السمك والذين ينوون الانتقال إلى عبادان خلسة.. شُرطة ودوريات وأغانٍ ريفية.. بينما النهر يتململ في مدِّه وجَزْرِهِ ليُغَّذي الجداول بالماء والطمي.. ثم يتسع رويدًا رويدًا حتى يعانق الخليج، حيث انسياب الألوان البُّنية للمياه، لتصطدم برفق بزرقة لا نهائية للخليج.

وفي هذه الزاوية من العالم تستقر "الفاو".. مدينة الملح والروبيان والصبور وكل الأسماك البحرية والنهرية.. مدينة النهايات الحادة والطقس الأفريقي.. نتوء هلامي يتمدد وينحسر تبعًا للتقلبات في العمل والهجرة.. نافذة العراق على الخليج بعربه وفُرسه والسفن العابرة نحو آسيا.. مدينة النفط والصيد والحدود.. تتكئ على رحابة الشط واتّساع النخيل، وكأنها ينبوعٌ من الخدر والدخان والترف والفقر والعمل والبطالة، احتضان غريب للأضداد.. البيوت الطينية المتآكلة، والمجمعات السكنية التي ترفل بالترف، نوادي النفط الحافلة بوسائل الترفيه والراحة، والأسواق التي تعكس حجم الفاقة.

الذي لا يعرف مرزوق؛ لا يعرف المدينة.. وكأنه أحد علاماتها... "مرزوق العبد".. هكذا يسمونه في غيابه، لسواد بشرته.. ولكنهم يدعونه "أبو سمرة" في حضوره؛ تحببًا أو تملقًا أو تهكمًا.. مرزوق يتجول بدون ملل بين طرقات المدينة وأسواقها.. يدفع (عربانة) خشبية متآكلة، صبغها بلونٍ أزرق، وكتب عليها بأحرفٍ بارزة : (محبوبة مرزوق)... اهتم بمحبوبته العربانة، فهي رفيقته الوحيدة.. كان يزيِّنها بـ(أقباق) المشروبات الغازية من بيبسي كولا وفانتا ومشن وصودا وميرندا وسيفون.. أقباق ملونة تخفي بؤس العربانة وتدخل البهجة على ملامح مرزوق المتجهمة... يتسكع في الأسواق بكسل، يحمل البضائع والمواشي والأسماك لقاء أُجرة زهيدة ولكنها تثير فيه نشاطًا كبيرًا.

وما إن يهبط الليل على الفاو وينطفئ وهج المدينة وتُغلق المقاهي، يأخذ مرزوق عربانته إلى ركنٍ قصيٍّ من المدينة، قريبًا من شطِّ العرب، حيث "نادي المعلمين".. خلف حديقة النادي يضعها برفق، وبخطوات رشيقة لا تنم عن تعب النهار الطويل؛ يدخل إلى مطبخ النادي.. الكل يعرفه، وبدون أن يتفوه بكلمة؛ يفتح كيسًا من القماش فيه بعض النقود، يعدُّها بفرحٍ ليشتري "بُطُل" عرقه اليومي... يداعبه أحد عمال النادي: ما طول بالنخلة تمر، ما جوز من شرب الخمر)... غير أنه لا يكترث للمداعبة، فعيناه تحدِّق في ضالته اليومية (بُطُل الزحلاوي)... يفتح فمه ليحتسي أول رشفة.. ثم تبتلعه ظُلمة الأزِّقة.

ميناء الفاو حافلٌ بالحركة، بعض البواخر تتزود بالوقود، وبعضها ينزِّل حمولته.. والسكلة لا تعرف الهدوء إلا في أواخر الليل، حيث ينام مرزوق في عربانته قُرْبها... وما أن تتراءى خيوط الشمس الأولى حتى تضجَّ الحركة.. خليطٌ من البحَّارة والكسبة والحمَّالين وصيَّادي الأسماك والجنود والمتسكعين، مما يجعل من الميناء نبضَ المدينة، حيث يستقطب الكثير من أبناء القرى المتناثرة الذين يبحثون عن العمل اليومي المؤقت... مدينة السبخ والماء والنخل مثقلة بالنفط، الذي لم يكسبها سوى تعاسة دائمة.. هذا النفط الذي يُغرِق العالم بالرفاه والمال والطاقة، لم يشأ أن يمنح بعض بركاته على هذه العتمة الرصاصية التي تحيط بالأفق، حيث تنطفئ الروح المتعبة، وتظل الأسئلة مخنوقة تحت هذه الفوضى... ويبقى مرزوق في عربانته التي ليست لديه من حطام الدنيا غيرها، مصدر عمله النهاري ونشوته المسائية، عالمه الفسيح والضيِّق... لا يهم ذلك، فهي فِراشه في تعبه وليله أو قيلولته.. يترع الخمر في لامبالاة في زاويته التي اختارها.. يصدح بصوتٍ أجشٍّ ليغنِّي (الأبوذية).. يجلس عند الجرف، وتهبط قدماه لتلامس حواف الماء، بينما تحدِّق عيناه في الأمواج الصغيرة المتراقصة التي تهرب نحو الجرف.. تفوح رائحة الرمل المبتل بالرطوبة.

مرزوق لا يدرك أنه سحابة ملعونة في سماء مكفهرة.. منذ طفولته وهو يعيش في هذه الرمضاء، يصارع جذوع النخيل، ويتأرجح بين

السعف الممتد وبين الكرب الناتئ.. ينهش العذوق الريَّانة بالرطب.. وحينما يتأرجح على سامق النخل المطلِّ على الشط؛ يرمي نفسه إلى النهر، وكأنه يذوب فيه... الذي يرى قفزته هذه يظن أن النهر التهمه إلى الأبد.. ولكن بعد دقائق من الغطس في الأعماق، ينبعث من جديد كسمكة متوحشة تفجرت عنها لُجَّة الماء المتلاطم.

لم يبرح الفاو لحظة واحدة، وكأنه قد امتزج بهذا العالم الكثيف، عالم النهر والنخل والجدب.. وكأن ملوحتها قد تخثرت في دمائه.. لقد رفض أن يكون عامل نفط، كما رفض أن يشتغل في الميناء.. هل كان يخشى أن يفقد حريته؟... لا شك أن ذاكرته مثقلة بالأحداث التي اختزنها بصمت، وها هي تتسرب من خلال دخان سيجارته، ومن هذا السائل الذي يتأبطه دائما كتعويذة، تبعد عنه مرارة ما هو فيه.

في غَبَشٍ عابقٍ بالرطوبة والغبار.. تحولت الفاو الآمنة إلى ما يشبه الثكنة العسكرية.. أرتالٌ من المصفحات والدبابات وحاملات الجنود والمدافع تقتحم صفو المدينة.. كان الجنود متشحين بالحُزن والغبار. وسرعان ما أصبح اللون الخاكي ميسمًا لمدينة فقدتْ لونها. انتشر التوجس والخوف بين سُكَّانها.. كانوا يذهبون مسرعين لشراء حاجاتهم وعلى رؤوسهم تنمو أسئلة مُرَّة.. كيف يتحملون حربًا ولا يفصلهم عن العدو المفترض سوى النهر، حتى أنهم يسمعون آذان مساجد الصوب الآخر من النهر، ويتعايشون مع تلك الضفة منذ

القِدم. كانوا يصيدون السمك معًا، ويتبادلون التمر والشاي والملح. كانت الأيام ثقيلة والليالي مزدانة بالهواجس، حتى كأنَّ الأزقة ابتلعت ساكنيها، فليس في هذه الدروب غير الفراغ والجنود.

عَبَرَ مرزوق بعربانته الخشبية إلى نادي الميناء لشراء بُطُله اليومي، ولكنه وجد أبواب النادي مقفلة.. حاول أن يذهب إلى نادي المعلمين للغرض ذاته، ولكن الطُرق مقطوعة... لم يستطع أن ينام تلك الليلة، لا يدري أبسبب حرمانه من العرق، أو بسبب هذه الشُهب النارية المصحوبة بالهدير والصراخ؟.. كانت القذائف تمزِّق جسد مدينته، وتحرق النخل.. تلك الحيطان الأليفة التي طالما تلمسها واستراح في أفيائها أصبحت كالأطلال، خاوية من أصوات الناس وعبث أطفالهم، بينما يعلو النخل.. ثمة اختلال غير محسوب؛ على الأقل بالنسبة لمرزوق.. لم يرَ مثل هذه الفوضى الجامحة من قبل.. يعرف المدينة منذ طفولته، فقد ألقته أمه ذات ليلة في بيت من جذوع النخل، وما إن سمعت صرخته الأولى حتى ذبلت عيناها من عسر الولادة.. ماتت وتركت مرزوق يتيمًا.. لكنه لم يستسلم، كان قويَّ البنية... احترف العمل في غابات النخيل الممتدة من الفاو حتى الخليج.. يتذكر أنه حالما يصل إلى السيبة حتى يعبر شط العرب سباحة إلى عبادان...

تذكر كل ذلك وهو يتلمس عربانته الغائصة في الوحل.

الأيام تمرُّ مثقلة بالقتل والدمار، ومدينة الفاو الأليفة تحتضر تحت وطأة صهيل الموت.. لقد توقفتْ الحياة ولم يبقَ فيها غير الجنود المتعبين... غادر الناس المدينة، اختفت لمحاتهم، أسواقهم، المقاهي النوادي، أحاديث السمر على النهر، والنسوة والأطفال، ودبيب الأقدام الصغيرة الراكضة.. لقد فتحتْ الأرض فمًّا متوحشًا لتعصف بكل شيء.

(إنها الحرب يا مرزوق.. اغتالت حلمك الجميل، ومسرح حياتك. حرب أنت لستَ طرفًا فيها.. لم يستشركَ أحدٌ في اتخاذ القرار، ربما لأنك لستَ راشدًا، لا تفهم سوى الخمرة ليلاً والتعب نهارًا، لا تصرخ محتجًا، لا أحد يسمع صوتك الشاذ المشوش والمجنون.. هم - فقط - يصنعون عرش الموت، وعليك أن تستجيب.. أنت مجرد رجل مجنون، لا قيمة له... أتتذكر مرة كنتَ تدفع العربانة، وكنتَ متعبًا وقد انغرزت عجلاتها في الطين فلم تستطع أن تخلِّصها.. استعنتَ ببعض الشباب الذين خرجوا من نادي المعلمين، قلتَ لهم: ادفعوا معي.. وقبل أن يضعوا أيديهم لدفع العربانة؛ قلتَ لهم: "انتظروا.. خليني أبوش الكَير"... لقد أغرقتهم في الضحك، بعضهم قال: مرزوق العربنجي مخبل.. وبعضهم أكَّد أنه ذكيٌّ وأعقل من الجميع، وأراد فقط أن يختبر ذكاءنا... هل جننتَ يا مرزوق ؟.. أم أن العالم قد جُنَّ مِنْ حولك؟).

في ليلة من ليالي الحرب الطويلة.. تحوَّل سواد الليل نهارًا، وكأن للجحيم أبوابًا هائلة، فُتحتْ على مصراعيها.. نارٌ مستعرة، حطامها بشرٌ وبيوتٌ ونخل... تحولت هذه المدينة إلى شواهد قبور وخنادق، حتى كأن المنازل تتطاير، وأرصفة الميناء تضمحل، ومصافي النفط تحترق.. وكأن لعنة حلَّتْ على هذه الزاوية المنسية من هذا العالم البائس...

نفض مرزوق الغبار عن شعره الأشعث، سار بخطواتٍ متعثرة، كان ثمة هدوء غريب.. عبر من خلال الخنادق والجنود المتوجسين.. كان الدمار هو سمة المدينة، لكنه كان يسير باتجاه شط العرب، وكأنه شبحٌ بشريٌ هلاميُ الملامح.. كان يتمتم:

- أولاد الزنا.. احرقوا النخل.

كانت الصرخات تحاول عرقلة مسيره نحو النهر : (قف.. وإلا أطلقنا النار عليك). حاول بعض الجند الرابضين في خنادقهم تهديده بالسلاح، لكنه كان يمشي باتجاه النهر رغم صليات الرصاص التي استهدفته لتحذيره، لكنها مرَّت قريبة من جسده المتعب... وحالما وصل إلى شط العرب؛ حتى انغمر في وحله، ولامست قدماه الحافيتان برودة الماء الآسن.. أحسَّ أن قدميه قد شاختا، وهو يلامس الجثث البشرية الطافية على الجرف، أقعى على إليتيه وهو يتطلع إلى الجذوع الميتة والجثث الطافية حيث برك الدماء المتخثرة... دوت رصاصة مجهولة، صافحت جبهته المتعرقة،

وألقت جسده المتيبس على النهر... كانت الدماء حمراء تذوب في الماء المتكدر... بينما كان جسد مرزوق يلتصق بجذع نخلة، وهو يعاني سكرة الموت.



في ظهيرة خانقة من منتصف ١٩٧٦م... تسللتُ كَلِصٍّ.. فتحتُ باب بيتنا الموصد بحذر، كي لا تستيقظ أمي من قيلولتها، كانت تغطُّ في نوم عميق، يتفصد عَرَقٌ من طهارة وجهها، فيفوحُ برائحة الأمومة.. تمنيتُ أنْ أمسحَ بعضًا من مَرارة التعب عن جبينها.. أنْ أقبِّل عينيها اللتين تغضنتا من تعب السنين.. أنْ أعترف لها بأني مزمعٌ على ارتكاب خطيئة هجرة طويلة.. لكنني ترددتُ... تذكرتُ، قبل أيام، أنها رصدتْ اهتمامي بأوراق السفر.. حاصرني سؤالها الحاد كالسكين:

- قلبي ينبئني يا ولدي بأنك ستذهب بعيدًا !.

- إنها بضعة أيام.. صدِّقيني لن أتأخر.

كنتُ كاذبًا حينما أجبتها وأنا ألتقط دمعة هاربة تسللتْ بين مآقيها.

فتحتُ باب البيت برفق، لفحني لهيبُ هواء الظهيرة.. توقفتُ مترددًا قائلاً لنفسي : سأوقظها من نومها، معترفًا لها بأنني قد لا أراها ثانية.. أدعوها أن تودِّعني بشجاعة، لأنني فقدتُ القدرة على البقاء في هذا الجو الخانق و المزدحم بالأضداد، أنْ أطلب المغفرة

منها، لعلها سترضى، وتفرش الماء لترطيب خطواتي... لكنني فضَّلتُ الانسحاب من مواجهتها فقد خذلتني عاطفتي، فتسللتُ بعيدًا، ألجُ متاهة لا نهائية.

بعد سنين علمتُ أنَّ اسمي كان يفترش شفاهها اليابسة لحظة احتضارها.

سأرسم الشطرة كما رأيتها آخر مرة من خلال دمعة أمي، وكأنها بلورة دافئة تتسلل بين الغضون... فيها بدأتْ مشاعري الأولى، طفولتي، ساحات اللعب، السيجارة الأولى، والعشق الأول، الهوايات والحماقات وتهجّي الحروف الأولى من هواجس رافقتنا إلى الأبد... نهرها يأتي من الشمال، فيشطرها إلى صوبين (قِيل سميت بالشطرة لذالك السبب)، تحفُّ به أشجار اليوكالبتوس، وتنساب مياهه بصمت لتهبَّ المدينة حياةً ودفئًا، تطفو عليه مشاحيف صغيرة لأهواريين رُحَّل، يدعون أنفسهم "البوشكون"، يقيمون صرائفهم على أطراف النهر، يبيعون السلال والبواري والأسماك.. ورغم مكوثهم الموسمي لكنهم يمنحون المدينة نكهة الهور...

تخوت المقاهي العتيقة تحفُّ بالنهر.. وفي المساءات المعجونة بغبار الطريق تعلو الأغاني الريفية من المذياع لمقهى (عبيد) الذي يتعامد مع الجسر الصغير، هذا المقهى الذي يعتبره الناس روح المدينة وتاريخها، منه تطلُّ على النهر أو تتسكع في الأسواق التي امتلكت خصوصياتها، فهذا سوق العبايجية والعقل يتصل بالقيصرية

بينما يتطرف سوق الصفافير ليختفي وراء الحمام الصغير... تذكرتُ الطور الغنائي الشطراوي والمطرب أبو الجكة الذي نجح في تحويل الشجن إلى لحنٍ راقص.

طويتُ خارطة المدينة، منطلقًا في سفرٍ ظننته قصيرًا، زوادتي حزمة من الذكريات والأشعار، وبعض رسائل العشق، وحجارة من دارنا تذكِّرني بملح الأرض التي سأغادرها مُرْغمًا.

كانت الشام محطتي الأولى، حيث انطلقتْ الحافلة من بغداد لتقضي ليلة كاملة في الصحراء متجهة إلى الرطبة ومنها إلى الشام... في الصباح الدمشقي العابق برائحة البرتقال والتين والزيتون توجهتُ إلى الجامع الأموي، الذي يطلُّ من عصوره الغابرة، التي هي مزيجٌ من المعرفة والعلم والتقوى، ولكنها تحمل رائحة لدماءٍ غزيرة أُريقت عبر السنين.. ساحة الجامع الأموي الفسيحة تضيق بالأسئلة التي ألَّحتْ عليَّ : أين أمضي ؟ بعد أن أحرقتُ سفن العودة وصرختُ بصوتٍ واهٍ، لكنه لا يشبه صرخة طارق بن زياد : الوطن المكبَّل وراءك، وهذه الصحراء العربية المترامية أمامك...

كل الاحتمالات مفتوحة، وأنا الآن في بنغازي الليبية، وما إن حططتُ رحالي هناك حتى هالني بؤسها، فقد أدمنت على فوضى الخمول، والشعارات التي تصافح وجهك أينما ذهبت... من بنغازي إلى طرابلس شريط ساحلي يطلُّ على المتوسط ولا ينتمي إليه..

فليس ثمة منتجعات للراحة أو شواطئ السباحة؛ كما السواحل الأوربية، فقط الوجوه المتعبة التي تنصهر في شمس الصحراء اللافحة. وحيث يتعانق الرمل والبحر في هارموني يتسم بالسكونية؛ استرحنا في سرت - مسقط رأس العقيد - وشربنا شايًّا كالقطران، مستأنفين السفر في صحراء تلوذ بالبحر... وها هي طرابلس المسكونة بهلوسة القائد، والتي شحنها بأطنان من الأقوال والغرباء، حيث الأفارقة الباحثون عن لقمة الخبز، والذين لا تعنيهم شعارات الكتاب الأخضر، وثرثرة الحاكم الذي يقفز كالكنغر من مشروع سياسي إلى نقيضه.

أحسستُ بالغثيان متذكِّرًا الوجوه التي غادرتُها.. فتأبطتُ حقيبتي من جديد إلى الجزائر... من نافذة الطائرة بدتْ العاصمة الجزائرية عروسًا بيضاء تحتضنها زُرقة بحرٍ لا نهائية.. كان الباص الذي أقلني من المطار يشق الزحام بصعوبة، بينما تفوح رائحة الصنوبر في وسط رذاذ مطر شفاف... توقف الباص في مركز العاصمة وبدأت رحلة شاقة من بحث عن فندق، تصورتها هينة... وبعد ساعات من الصعود والهبوط في الطوابق العلوية والسلالم المهترئة كان الجواب أن الفندق لا مكان فيه...

- سيدي.. أنا متعب ونحن في الصباح، فكيف لغُرفكم أن تمتلئ بهذه السرعة ؟!

شزرني موظف النُزل بنظرة غير محايدة وقال:

- الله غالب.

رددت بنفسي بيت شعر لـ"سعدي يوسف": (فأمام الوجوه الشريدة، لا يفتح الناس أبوابهم) وكدتُ أصرخ بكل أصحاب الفنادق الذين رفضوا أن أكتري غرفة لديهم.

ذهبتُ إلى مقهى اللوتس، حيث المشارقة يحتسون القهوة ويجترون حكايات الوطن وحرب لبنان... ابتسم العراقي الذي التقطته في المقهى دون سابق معرفة وهو يشرح لي عن سبب عدم حصولي على فندق:

- الناس هنا يتوجسون من الغرباء، لا سيما الآتين من الشرق، ويبدو أن عنف الاحتلال الفرنسي أنجب على مَرِّ التاريخ سيكولوجية الانزواء على الذات ورفض الآخر.

دعاني إلى شقته ريثما أداري تعبي، ولكننا تشبثنا ببعضنا لكثرة المشتركات... في تلك الليلة أحسستُ بالدفء الذي افتقدته.. تجادلنا في السياسة والأدب.. قرأنا شعرًا واستمعنا لأغانٍ قديمة احتفظ بها صاحبي في أشرطة التسجيل، كانت تلك الأغاني تعويذة الوطن الذي تركناه مرغمين.. في تلك الليلة غنَّينا معًا: (للناصرية.. تعطش وشربك ماي بجفوف ادية)... ضحكنا كثيرًا، وبكينا.. ولكننا لم نزل نلتفت إلى الزوايا التي غادرناها... هل هي خشية من المجهول أم تحسبًا له؟

كانت الحافلة متجهة إلى مدينة عزازقة... في تلك المدينة عُينتُ مدرسًا.. كان المدرسون من كل الأجناس، كما كان التعريب في

خطواته الأولى، حيث سياسة التعريب بين شدٍّ وجذبٍ ما بين أنصار العربية أو المحافظين على الإرث الفرنسي.. وقد أصبحنا دون أن ندري طرفًا في نزاعٍ لسنا مهيئين لخوضه.

عزازقة مدينة جبلية، تشعُّ برائحة الصنوبر، والبحر لا يبعد عنها كثيرًا.. كانت البيوت ذات السقوف القرميطية تستلقي على السفوح، والمقاهي تتسع للتحاور والشجار بين المدرسين الذين ينتمون إلى بلدان مختلفة.. "بومدين" - عرَّاب التعريب- في موتٍ سريريٍّ غير معلن.. والمجاهدون أغوتهم السلطة فعشقوها.. بينما الشعب يعاني الأمرَّين... مكثتُ عامًا هناك، فداهمتني فكرة الهجرة إلى المغرب الأقصى، فما دمنا قد "بعدنا عن النخل" فما الضير أن نبتعد أكثر.

كانت "وجدة" واقعة على التخوم الجزائرية. ومن المنفذ الحدودي (زوج بغال) دخلتُ، فهالني وحشة الحدود، فثمة حرب باردة بين الجزائر والمغرب حول مشكلة الصحراء... في الطريق كان صوت المذياع يغنِّي عن فداحة الهجرة: (يالرايح وين مسافر / تروح تعيه وتولي / شحال ندمو لعباد الغافلين قبلك وقبلي).. هل كان المُغَّني يعنيني وهو يلامس مكمن الضعف؟... تجلَّدتُ بعد أن سقطتْ دمعة على صفحات كتابي الذي أتصفحه بشرود...

وجدة عاصمة المغرب الشرقي تفترش المتوسط شمالاً، ولكنها لا تنأى عن مناجم النحاس في مرتفعات (جرادة) القاحلة... في مقهى كولومبو الكائنة في شارع محمد الخامس، تصفحتُ بعض الصحف

وأنا ارتشف بصمت القهوة (المهرسة) بالحليب، بينما الباعة المتجولون وسماسرة العملة وصباغو الأحذية يسمِّمون لحظة صفاء كنتُ أحتاجها.

إلى محطة القطار الصاعد إلى "فاس" حملتُ حقيبتي. كان القطار يصهل في فيافي شبه مقفرة. و"وجدة" تتلاشى شيئًا فشيئًا.. يتلوى القطار حينما يقترب من فاس، حيث يتكثف الشجر وتكتسي الأرض بخضرة قاتمة... ها هي فاس التي تطلُّ علينا من القرن الثاني الهجري حيث أقام الأدارسة حضارتهم، وحيث احتضنت الأندلسيين عشية سقوط الحضارة العربية هناك... كنتُ أبحثُ عن "لسان الدين بن الخطيب"، أرى خطواته في أزقَّة فاس، أشمُّ رائحته في أسوارها، أتلمس ألمه في باطن أرضها.. كان يغريني بالمتابعة والتفحص، وكلماته تصهل في عروقي: (لم يكن وصلك إلا حلمًا)... كان ابن الخطيب سجينًا فيها.. هل استنشق الحرية شعرًا ؟ أم مات بين أغلاله التي كبَّلته سنينا ؟... عطر اللغة ووهم الواقع والحنين إلى الأندلس حيث (جادك الغيث إذا الغيث هما..) تظل معلقة على الأسوار.. هل نسيتُ ابن الخطيب وأنا ألج جامع القرويين ؟ أم أنَّ بهاء اللحظة أغرقني في متاهة المعالم الحضارية التي بقيتْ تاريخًا فقط، ونحن نلوذ بجهلنا وفرقتنا وخوفنا ؟!.

يصل القطار فجرًا إلى "الرباط"، حيث الشوارع مغسولة بالندى، تطفح منه رائحة الياسمين والعرعار، بينما أشعة الشمس تبدِّد شيئًا

من العتمة، فتدبُّ الخطى : باعة الصحف، المسافرون والعمال والسابلة وصباغو الأحذية والمتسولون... أرتشفُ قهوة الصباح وأستعرض الصحف اليومية، حتى يمتلئ وجه الصباح بالزحام اليومي.

هذه المدينة التي أسَّسها المرابطون، في عهد السلطان يعقوب المنصور، ثم أصبحت عاصمة للموحدين، أقفرتْ مراتٍ وازدهرتْ مراتٍ أخرى؛ تبعًا للمدِّ والجَزْر السياسي.. تحتضن نهر أبي رقراق الذي يفصلها عن "سلا"... أحببتُ "الرباط" وانغمرتُ في أسواقها وكأنني أكتشف نفسي، ولا سيما حينما أتأمل أمواج الأطلسي من على صخور "الأوداية"، تلك القلعة التي تقابل صومعة "حسان"، بينما أمواج المحيط كالخيول الجامحة التي تدكُّ حافة السور.. ومن "الأوداية" تبدو "سلا" ساكنة، بانتظار موسم الشموع.

كتاب تعييني أثار فيَّ فرحًا لم أستطع كتمانه، ولكن الانتظار جعلني أعشق "الرباط" وأسواقها ومقاهيها.

أما الآن فدربي إلى "تارودانت".. قيل لي إنها نائية في الجنوب.. أحسستُ بجاذبية اليها، أنا الجنوبي الذي يحنُّ إلى غرْين الماء، ونجمة الصباح، والنسيم الجنوبي... مكثتُ عامين فيها، أعيشُ دهشة المكان، أبحثُ عن قطرة ماءٍ تبلِّل عطشي المزمن. قلتُ لصاحبي المغربي الذي يشاركني احتساء الشاي الأخضر بالنعناع :

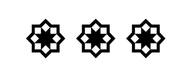
- هل يموت أحدٌ في تارودانت ؟

استغرب من سذاجتي مجيبًا بـ"نعم"... وحينما رأيتُ الدهشة في عينيه، قلت له إن الموت في مدينتي يتحدى الحدود، مكبرات الصوت واللطم والنواح وشق الجيوب... قال: نحن نبكي بصمت، لأن الحزن الشديد يؤذي الميّت.

كانت "تارودانت" الصامتة أمام الحزن تسهر إلى الصباح في الأعراس.. إنها تضجُّ بالحياة، وتزخر بالمواسم الفولكلورية الرائعة حيث الشعر الأمازيغي الذي يتوهج بين دقات الطبول والدفوف والأبواق، حيث يأتي حافلاً بالمعاني التي تقدِّس الحب والإنسان والحياة.. الدقة الرودانية، ورقصة أحواش وشلوح سوس الذين يبهرون المشهد ويزيدونه تألقًا بانصهارٍ رائعٍ بين الثقافات العربية والأمازيغية والأفريقية.

تارودانت نحلة تقتات بالمندرين وتتبرج بالأركان.. مدينة مغلقة ومفتوحة، تشعرك أنها سقف العالم ومنخفضة السحيق، هي البدايات والنهايات معًا... كنتُ أعشق حقولها المزدانة بالبرتقال والمندرين، أعشق أسوارها التي تمتد بامتداد الزمن، أعشق عيون النسوة وسكون المقاهي وضجيج الأزقة.

وفي نهار خريفي مبتل بالندى، وجدتُ نفسي أترك تارودانت إلى الأبد... ولكن المدن كالنساء، مهما هجرتهن أو هجرنك؛ فلا بد أن يلتصق عطرهن في الذاكرة.



المؤلف في سطور

- كاتب وقاص عراقي.
- خريج كلية الآداب / جامعة بغداد.
- مارس التعليم في كل من العراق والجزائر والمغرب.
- هاجر الى كندا وما زال يعيش فيها.
- كتب في صحافة المنفى مقالات في مجال الأدب والفن والسياسة.
- استهواه فن الكاريكاتير، فكتب عنه بعض المقالات ، ثم مارس هذا الفن الذي يعتبره اداة ناعمة لترويض حياة حادَّة.
- الإصدارات :

  - أوراق من يوميات حوذي : مجموعة قصصية
  شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م

- البريد الإلكتروني : rabbas@rogers.com

  abbasrahman0@gmail.com

الفهـرس

شمس للنشر والإعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر،تأسست "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، وبين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات، تتمثل في:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على إبرازها.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net